

أدب

لعميد الأدب

الدكتور طه حسين

أخي العزيز

وددت لو أسميك ولكنك تعلم لماذا لا أسميك وحسب الذين
ينظرون في هذا الكتاب أن يعلموا أنك كنت أول المميزين لي حين
أخرجني الجور من الجامعة وأول المهنيين لي حين ردني العدل إليها .
وكنت بين ذلك أصدق الناس لي ودا في السر والجهر وأحسنهم
عندي بلاء في الشدة واللين .

فتقبل مني هذا العمل الضئيل تحية خالصة صادقة لآخائك
الصديق الخالص ..

طه حسين

زعموا أن من أظهر خصائص الأديب حرصه على أن يصل بين نفسه وبين الناس ، فهو لا يحس شيئا إلا أذاعه ولا يشهر بشيء إلا أعلنه وهو إذا نظر في كتاب أو خرج للترويض ، أو تحدث إلى الناس فأثار شيء من هذا في نفسه خاطرا من الخواطر ، أو بعث في قلبه عاطفة من العواطف أو حث عقله على الروية والتفكير ، لم يسترح ولم يطمئن حتى يقيد هذا الرأي ، أو تلك العاطفة أو ذلك الخاطر في دفتر من الدفاتر أو على قطعة من القرطاس .

ذلك لأنه مريض بهذه العلة التي يسمونها الأدب ، فهو لا يحس لنفسه ، وإنما يحس للناس ، وهو لا يشهر لنفسه وإنما يشهر للناس ، وهو لا يفكر لنفسه وإنما يفكر للناس . وهو بعبارة واضحة لا يعيش لنفسه وإنما يعيش للناس . وهو حين يأتي من الأمر هذا كله يخادع نفسه أشد الخداع ويضلها أقبح التخليل . فيزعم أنه مؤثر لا يريد أن يستمتع وحده بنعمة الاحساس والشعور والتفكير . وإنما يريد أن يشرك الناس في هذا الخير الذي أنتجته طبيعته الدقيقة الخصبة الغنية ، فإذا كان متواضعا ، معتدلا الرأي في نفسه فهو شقى تهس محزون ، يحب أن يعلن إلى الناس ما يجد من شقاء وتهس وحزن ، لما هم يرثون له أو يرأفون به أو يشفقون عليه . وربما لم ير في نفسه إيثارا ، ولم يحس أنه شقى وإنما أثر نفسه بالخير ، وأحبها قليلا أو كثيرا فهو يسجل ما يحس وما يشهر وما يفكر ليحفظه من الضياع وليستطيع العودة إليه من حين إلى حين كلما خطر له أن يستعرض حياته الماضية ، وكثيرا ما تعرض له الفرص التي تحملها على أن يستعرض حياته الماضية ،

والذاكرة قصيرة ضعيفة ، فلم لا يسجل خواطره وعواطفه وآراءه التي يتكون منها تاريخه الفردي الخاص ليعود اليه كلما دعاه الى ذلك جد الحياة او هزلها ؟ وما أكثر ما يدعو جد الحياة وهزلها الى ان يستعرض الانسان حياته الماضية وما اختلف عليه فيها من الأحداث .

يخدع الاديب نفسه بهذه الضروب من الخداع ، ويعالها بهذه الألوان من التعلات . وحقيقة الامر انه يكتب لانه اديب ، لا يستطيع ان يعيش الا اذا كتب ، يكتب لانه محتاج الى الكتابة كما يأكل ويشرب ويدخن لانه محتاج الى الطعام والشراب والتدخين . وهو حين يكتب قلما يفكر فيما يحسن أن يكتب . وما ينبغي ألا يعرفه القرطاس أو يجرى به القلم كما انه حين يأكل ويشرب قلما يفكر فيما يلائم صحته وطبيعته ومزاجه من ألوان الطعام والشراب وأصناف التبغ . انما هي حاجة تضطره الى الحركة ، فيتحرك وتدفعه الى العمل فيعمل . فأما عواقب هذه الحركة ونتائج هذا العمل فأشياء قد يتاح الوقت للتفكير فيها في يوم من الايام حين تصبح امرا مقضيا لا تنصرف عنه ولا سبيل الى التخلص منه .

اذا كان هذا كله صحيحا ، وأكبر الظن أنه صحيح ، فيجب أن يكون صاحبي الذي اريد ان اتحدث اليك عنه اديبا . فلست اعرف من النيام الذين اقيتهم وتحدثت اليهم رجلا أضنته علة الادب ، واستأثرت بقلبه ولبه كصاحبي هذا . كان لا يحس شيئا ، ولا يشعر بشيء ، ولا يقرأ شيئا ولا يرى شيئا ولا يسمع شيئا الا فكر في الصورة الكلامية ، او بعبارة ادق في الصورة الادبية التي يظهر فيها ما أحس ، وما شعر وما قرأ ، وما رأى وما سمع . وكان يجد مشقة شديدة في اخفاء تفكيره هذا على الناس ، فكثيرا ما كان يقول لأصحابه اذا رأى شيئا أسخطه أو أَرْضاه : ما أخلق هذا الشيء ان ينشئ صورة اديبية ممتعة للسخط أو الرضاء ! وكان يقضي نهاره في السعى والعمل والحديث حتى اذا انقضى النهار ، وتقدم الليل وفرغ من أهله ومن الناس وخلا الى نفسه ، أسرع

الى قلمه وقرطاسه وأخذ يكتب ويكتب ويكتب حتى يبلغ منه
الاعياء وتضطرب يده على القرطاس بما لا يعلم ولا يفهم ، وتختلط
الحروف امام عينيه الزائفتين ، ويأخذه دوار فاذا القام قد سقط
من يده ، واذا هو مضطر الى ان يأوى الى مضجعه ليستريح . ولم
يكن نومه بأهدأ من يقظته . فقد كان يكتب نائما كما كان يكتب
يقظا ، وما كانت احلامه في الليل الا فصولا ومقالات ، وخطبا
ومحاضرات ، ينمق هذه ويدبج تلك . كما كان يفعل حين كانت
تجتمع له قواه العاملة كلها ، وكثيرا ما كان يحدث اصدقاءه
بأطراف غريبة قيمة من هذه الفصول والمقالات التي كانت
تمليها عليه احلامه فيجدون فيها لذة ومتاعا .

وكثيرا ما كان يقرأ عليهم فصولا من النثر ومقطوعات من الشعر
أملتها عليه يقظته ، وسجلتها يده حين كان يخلو الى نفسه بعد ان
يكون قد ملأ عينيه واذنيه وحسه وشعوره وقلبه وعقله بما يحيط
به من الاشياء وبما يحسه من الناس ومن الحياة .

وكان اصدقاءه اذا سمعوا منه هواجس الاحلام او خواطر اليقظة
الحواء عليه في ان يذيع ذلك وينشره ، فيبتسم ثم يهزأ ، ثم
يمتنع عليهم ويلح في الامتناع ، لانه كان يؤمن بأن ما يكتبه لم يصل
بعد الى ان يكون خليقا بأن يقدم الى المطبعة ، فهو كان يخاف
المطبعة ويكبرها ويحيطها بشئ من التقديس غريب ، وكان يتحدث
بأن ما يقدم الى المطبعة من الاثار المكتوبة أشبه شئ بما كان يقدمه
الوثنيون القدماء الى آلهتهم من الضحية والقربان ، وبما يتقدم
به الآن المؤمنون المترفون الى الههم من الصلاة والدعاء . فمن
الحق ان تصطفى الضحية وان يتخير القربان ، وان تكون الصلاة
قطعة من النفس وان يكون الدعاء صورة للقلب والعقل جميعا .

وكان صاحبنا يرى ان ليس فيما كتب ضحية تصطفى ولا
قربان يختار ، وانه لم يوفق بعد الى ان يودع القرطاس قطعة من
نفسه ، أو يسطر عليه صورة قلبه وعقله . فما زالت الآماد بينه

وبين المطبعة بعيدة . وما زالت الاستار والسجف دونه مسددة .
فليكتب اذا لنفسه لا للمطبعة ، فاذا نطق بنفسه وبماتملى فليظهر
اصدقائه على شيء منه ويرى هذه الحاجة القوية التي لحسها
بجميعها الى ان يشرك الناس فيما يجد من حس او شعور . والحق
ان صاحبي لم يكن يقدم على هذا الا كارها مضطرا حين لا يجد
بدا من الاقدام . او حين يسأله اصدقائه عما احدث بعدهم .
وكان حياؤه يمنعه من اظهار عقله وقلبه ، كما يمنعه من عرض
جسمه عاريا على الناس . ولكن اصدقائه لم يكونوا في حاجة الى
ان يروا شخصه عاريا . وكانت حاجتهم شديدة الى ان يروا
ففسه كما هي ، لانها كانت جميلة خلاصة تروعهم حيناً . وتثير في
نفوسهم الحب والمودة دائما

كان قبيح الشكل نابي الصورة تقتحمه المين ولا تكاد تثبت فيه،
وكان الى القصر اقرب منه الى العاقل . وكان على قصره عريضا
ضخم الاطراف مرتبها كأنما سوى على عجل ، فزادت بعض
اطرافه حيث كان يجب ان تنقص ونقصت حيث كان يحسن ان
تزيد . وكان وجهه جهما غليظا يخيّل الى من رآه ان في خديه
ورما فاحشا . وكان له على ذلك انف دقيق مسرف في الدقة ،
منبسط غال في الانبطاح ، قد اتصل بجهة دقيقة ضيقة لا يكاد
يبين عنها شعره الفزير الجعد الفاحم .

لم تكن قد تقدمت به السن ، بل لم يكن جاوز الثلاثين ، ولكن
علامات الكبر كانت بادية على وجهه وقده لا يخدع عنها احد .
كان على قصره مقوس الظهر اذا قام ، منحنيا اذا جلس ، ولعل
ادمانه على الكتابة والقراءة ، واسرافه في الانحناء على الكتاب
او القرطاس هما اللذان شوها قده هذا التشويه . وقلما كان
وجهه يستقيم امامه ، انما كان منحرفا العنق دائما الى اليمين
او الى الشمال ، وقلما كانت عيناه الصغيرتان تستقران بين
حيفسونه الضيقة ، انما كانتا مضطربتين دائما لا تكادان تستقران

على شيء حتى تدعاه مصعدتين في السماء ، او تنحرفا عنه الى ما يليه من احدى نواحيه

ولم يكن صوته عذبا ولا مقبولا ، وانما كان غليظا فجيا ، ولكنه مع ذلك لم يكن يخلو من نبرات حلوة تجرى عليه اذا قرأ شيئا فيه تأثر وانفعال . وكان له ضحك غليظ مخيف يسمع من بعيد ، بل كان كل ما يصدر عن صوته غليظا مخيفا ، يسمع من بعيد ، ولم يكن للنجوى معه سبيل . وكثيرا ما ضايقه ذلك حين كان في باريس . وكثيرا ما حمل ذلك الناس عامة ، واصدقائه خاصة ، على ان يضيقوا به ويجتنبوه اذا لقوه في قهوة او ناد او ملعب من ملاعب التمثيل

وهو على رغم هذا كله كان أحب الناس الى ، واكرمهم على ، وآثرهم عندي ، واحسنهم مسلكا الى نفسي ، ومنزلا من قلبي . كان يزورني فانصرف اليه عن كل شيء وأقضى معه الساعات ، فاذا تركني خيل الى اني لم أقض معه الا اللحظات القصار . وكنت اذا اعياني الدرس واحتجت الى الرياضة أو الراحة آثرت زيارته والتحدث اليه والاستماع له على كل ما كانت تقدم الى القاهرة او باريس من انواع الرياضة والراحة



فقد عرفته في القاهرة قبل ان يذهب الى باريس ، ثم ادركته في باريس بعد ان سبقني اليها . عرفته مصادفة وكرهته كرها شديدا حين لقيته لأول مرة ، كنا في الجامعة المصرية القديمة في الاسبوع الاول لافتتاحها ، وكنت اختلف الى ما كان يلقي فيها من المحاضرات ، حريصا عليها مشغوبا بهامعترضا أن لا أضيع حرفا مما يقول المحاضرون . وكان مجلسي لهذا دائما قريبا من الاستاذ . فاني لمصغ ذات ليلة الى الاستاذ واذا بصوت من ورائي ينطلق بالحديث هادئا ، ولكنه على هدوئه يفمر أذني جميعا ، ويكاد يخفى على

صوت الاستاذ فأجد في التخلص منه فلا أفصح ، واضيق بهذا الصوت ويضيق به صاحبات اللذان يكتنفاني .

فالتفت الى صاحب الصوت لطلب اليه الصمت فلا يسكت الا ريثما يستأنف الحديث ، ونراجع مرة اخرى فلا يحفل بنا ، فنشكوه الى الاستاذ فيضطره الاستاذ الى الصمت . حتى اذا انتهت المحاضرة وخرجنا من غرفة الدرس راينا قد وقف لنا ينتظرنا ، فيعرض لنا في غلظة فاذا زعمنا له ان من حقنا ان نسمع الاستاذ ، وان ليس له ان يصرفنا عنه ، قهقهة مخيفة وقال في صوت ما نشك ان الاستاذ قد سمعه : « وماذا تريدون ان تسمعوا ؟ ولكنكم معذورون ، جئتم من الازهر ، فكل شيء عندكم قيم ، وكل شيء عندكم جديد » .

واجتهدنا بعد ذلك في أن نجتنب مكانه من غرفة المحاضرات وان تختار لانفسنا مجلسا بعيدا منه اقصى غاية البعد . تركناه ولكنه لم يتركنا ، وكان عمائنا كانوا تغريه بنا وتجرسه علينا . فلم تكن نخرج من محاضرة حتى يعرض لنا ويأخذ بجبتي او قفطاني وهو يسألني : « أعجبتك المحاضرة ؟ » فان قلت : « نعم » قال : « وماذا أعجبك منها ، وهل فهمتها على وجهها ؟ » وكان يقول لي : « هون عليك من هذا الحصر على المحاضرات ولا تنهالك عليها هذا التنهالك ، فهي اقل غناء مما تظن وخير لك أن تقرأ من أن تسمع »

فلما ألح على في ذلك سأله : واذا كنت ترى هذا الرأي فما اختلافك الى الجامعة ؟ وما استماعك للمحاضرات ؟ وما تهوئك علينا بصوتك العالي وحديثك الذي لا ينقطع ؟ فضحك وقال : الجامعة شيء جديد احب ان اراه ، وقد سئمت القهوة ، ولو لم يكن في الجامعة الا انت واصحابك هؤلاء الذين تنفتح حقولهم للعلم الحديث فينلقون ما يسمعون في كل يومهم مصدرهما الجهل العميق ، لكان هذا كافيا لان يختلف الى الجامعة واستمع للمحاضرات . ثم سألني ذات يوم : اين تقيم ؟ اجبته : اقيم في هي كذا . قال : ومع من تقيم ؟ قلت : مع جماعة من الاهل

والاصدقاء كلهم يطلب السلم في الازهر او في المدارس المدنية .
قال : ان منزلك بعيد وليست بيئتك بالتي تحب . فانا لا احب
مجالس الطلبة ، وأنا مع ذلك حريص على ان اجلس معك واتحدث اليك
فاطيل الحديث ، بل انا حريص على ان اقرا معك بعض الكتب ،
فلا بد اذن من ان نلتقى ، ومن ان نلتقى في نظام واطراد ، فليكن
ذلك عندي ، ولك على ان اردك الى اهلك وأصدقائك قبل ان يتقدم
الليل ، دون ان تجسد في ذلك مشقة او تحتمل فيه عناء
وكان يقول هذا بصوته الغليظ العريض في لهجة الحازم الواثق
بأن أمره سيطاع ، وقد هممت ان ارد عليه معتذرا ، وما كان
أكثر المعاذير !

فلم اكن أستطيع ان اسير ولا اتعرف الى احد دون اذن من
أخي ، وكان على ان اغدو مع الفجر الى درس الاصول ، ولم
يكن بد من ان استعد لهذا الدرس وغيره من دروس الازهر ، وان
اعوض هذا الوقت الذي اضيعه كل مساء في الجامعة على كره من
أخي في القاهرة ، واسرتي في الريف .

هممت ان اعتذر ، ولكنه لم يمهلي ولم يتح لي ان اقول حرفا
وانما استوقف عربة ودفعني فيها دفعا ، وامر خادمي الاسود
الصغير ان يجلس الى جانب السائق ، وجلس هو الى جانبي
وقال للسائق بصوته الغليظ العريض : الى القلعة ، وكنت
اسكن في اقصى الجمالية . فلما اخذت اقدر بعد الامد بين داره
وداري ، وهممت ان اتكلم ، وضع يده على كتفي وقال : الم اقل
اني سأردك الى حيث تقيم ؟



وقطعت بنا العربة احياء مختلفة ، ومضت بنا في اجواء
متباينة ، وكنت احس اختلاف الاحياء ، وتباين الاجواء فيما
يصل الى من اصوات الناس وحركاتهم ومن اضطراب الاشياء
من حولنا ، كما كنت احس ذلك في سير العربة نفسها وفي لهجة

السائق وهو يدفع الناس امامه ويطلب اليهم ان يتنحوا له عن الطريق او ان يجنبوا انفسهم خيله وعربته .

كان الحى رشيقا انيقا ، وكان الجو سمحا طليقا ، وكانت الجركات والاصوات من حولى لا تخلو من شدة وعنف ، ولكن فيها ظرفا وتأنقا ، حتى اذا بلغنا شارع محمد على ضاقت الطريق ، واشتد امامنا الزحام ، وكثر من حولنا الصياح ، واخذت اصوات الاطفال ونساء الشعب تختلط باصوات الرجال من العمال وسائقى عربات النقل ، وانتشرت فى الجو روائح ثقيلة تمتاز منها روائح البصل والثوم وقد اخذت تعمل فيها النار . وارتفع صوت السائق واتصل ، وكثر نذيره وتحذيره ، وكثر حوله لوم الناس له وتأنيبهم اياه ، وتردد فى الهواء هذا الصوت المعروف الذى يحدثه السائقون باسواطهم حين يأتون بها هذه الحركة التى يردعون بها الخيل ينهبون بها المارة ، ثم تنفسح الطريق وتتسع ويصفو الجو ، ويخف الهواء وهذا الحركة ويتنفس السائق مطمئنا ، وتمشى الخيل رفيقة . ولكن ذلك لا يطول الا ريثما تنعطف العربية ذات اليمين واذا نحن فى حارة ضيقة هادئة قد ثقل فيها الهواء وفسد فيها الجو وكثرت فى ارضها الاحاديث . فالعربة تقفز بنا قفزا والسائق يهز سوطه فى الهواء ، ويحذر وينذر فى هدوء ورضى ، ويدعو ذلك بعض التوافد الى ان تفتح ، ويشير ذلك بعض الصبيان فيخرجون من بيوتهم او من اوكارهم يعبثون بالسائق . ومنهم من يتعلق بالعربة ثم ينصرف عنها ونحن نضحك من هذا كله ، ونضحك من السائق خاصة وهو ينظر امامه ويلتفت وراءه ، ويضرب الهواء بسوطه ، ويطلق لسانه بالفاظ ترق حتى تبلغ المداعبة الحلوة ، وتغلظ حتى تصل الى الشتم القبيح ، وكل ذلك يصل الى نفسى فيحدث فيها اثارا مختلفة ، ولكنها على اختلافها تتفق فى شىء واحد هو الطرافة ، لاني لم اكن تعودت ركوب العربات ، ثم يقف السائق فجأة وينزل من العربية ، واذا صاحبى يقول لى : لم نبلغ البيت بعد . ولكننا انتهينا الى حيث

لا تستطيع العسيرة ان تمضى ، فهل تعودت التصعيد والرقى
 فى الجبل ، فانا لا احب ان اسكن فى السهل المنبسط فاكون كفىرى
 من الناس . وانما احب ان اشرف على القاهرة ، وان اخيل الى نفسى
 انى لست منغمسا فيها ، وانى ادخلها اذا غدوت الى عملى مع
 الصبح واخرج منها اذا رحت الى بيتى مع الليل . ولست اخفى
 عليك انى اجد لذة قوية حين ادخل المدينة مع النهار هابطا اليها
 من هذه الربوة كائى اغروها واسقط عليها سقوط النسر على
 فريسته ، واجد لذة اخرى ليست اقل من تلك اللذة قوة حين امضى
 النهار كله فى المدينة مضطربا مع الناس فيما يضطربون فيه من
 عمل ، خائضا مع الناس فيما يخوضون فيه من حديث ،
 مشاركا للناس فيما يأتون من خير وشر ، تافعا ضارا منتفعا
 محتملا للضرر ، حتى اذا كان المساء ضقت بهم وضاقوا بى ،
 واويت انى جامعتكم هذه الجديدة اريح نفسى بما اسمع من كلام
 فيه المتسع وفيه السخيف . ولكنه على كل حال ليس بدئ
 غناء ، حتى اذا اخذت بحظى من هذه الراحة الاولى ، رحت الى
 بيتى ، فلا تسلم عن هذا الشعور العذب الذى يغمر قلبى شيئا
 فشيئا كلما دنوت من هذا المكان احس كائى انسل من المدينة ،
 واتخفف من أثقالها وألقى آثامها من ورائى واطهر جسمى ونفسى
 من اضرارها وادرانها ، حتى اذارقيت هذه الربوة وبلغت قممتها
 هذه . وكنت قد احسست الجهد من التصعيد فى طريق عالية
 ملتوية . وقفت وقفة من كان فى مكروء فخلص منه . وارسلت
 زفرة يخيل الى انها تحمل بقية ما علق بنفسى من شر المدينة ،
 ثم تنفست ملء رئتى مرة ومرة ، ثم اقبلت هادئا مطمئنا قصير
 الخطى الى هذا الباب . وهنا وقف ودق الباب دقتين ففتح
 لنا ثم اغلق من دوننا .



وانعطف بنا الى اليمين فمشينا خطوات ، ثم انتهى بنا الى دهليز
اقرقينا درجات ، وخدام صبية تسعى بين ايدينا وقد حملت في
يدها اللطيفة سراجا صغيرا يضطرب منه ضوء ضئيل ، حتى
اذا بلغنا اعلى السلم وقف يبحث في جيبه عن بعض الشيء ، ثم
أخرج مفتاحا فأداره في قفل امامه حتى اذا فتح له الباب صاح
صيحة عريضة ان اخلع نعليك فقد بلغت الغرفة الحرام .

ولم اكد اسمع هذه الجملة حتى انحنيت الى حذائي اريد
ان اخلعه حقا ، واي غرابة في ذلك ؟ فقد تعودت خلع الحذاء
مرات في كل يوم ، حين كنت اختلف الى الدروس في الازهر او
في جامع محمد بك ، او في جامع العدوي ، او في جامع الاشرف .
هناك حيث كنت استمع لدروس الاصول والفقه والنحو والمنطق
والتوحيد ، وتعودت خلع الحذاء حين كنت ازور بعض الدور ،
ولا سيما دور شيوخنا من العلماء ولا سيما هذا الشيخ الذي كان
الخدوي قد نفاه من الازهر نفيا وحظر عليه التعليم فيه . فتبعناه
الى داره والحقنا عليه في ان يمضي في القاء ما كان يلقي علينا من
الدروس لاحبا في علمه ولا تهالك اعلى شخصه ، ولكن تحديا لذلك
السلطان الذي كنا نراه جائرا متحكما ، ولا نريد ان نذعن لجوره
ولا لتحكمه ، وآية ذلك اننا نشرنا في الصحف خبر الحاحنا
على الاستاذ ، واستجابة الاستاذ لنا ، واختلافنا الى داره في
الضحى من كل يوم نسمع منه الاصول في بعض الايام ، والمنطق
في بعضها الآخر .

هنالك في الدرب الاحمر كنا نبلغ الدار مختلفين ، فبعضنا
يتخذ احذية الشيوخ ، وبعضنا يتخذ احذية الافندية ، وكلنا كان
يخلع حذاءه ، اذا بلغ المنظرة ، فلم اجد اذن غرابة في ان يطلب
الى صاحبي ان اخلع نعلي حين بلغنا غرفته هذه ، فلعل ما كان

يفطى ارضها من بساط او حصير كانت تقام عليه الصلاة ، كما كانت تقام على ما يفطى ارض المساجد وارض منظره الشيخ من بساط او حصير . ولكنى ثم اكده انحنى على حدائى لاخلعه حتى امتلا الجو بضحك عريض رائع مخيف ، ثم امتدت الى يد صاحبي انقليظة فردتنى الى اعتدال القامة ، وصاحبي يقول : ماذا تفعل ؟ افتظن انك فى الازهر ؟ او هذا كل ما علمته من البيان ؟ قلت فى شىء من الدهش عظيم : وای غرابة فى ان تخلع النعال عند ابواب الغرف ؟ واين يكون البيان وابوابه من خلع النعال ؟ قال : يا سيدى انهم يدرسون لكم فى الازهر التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية . وما اشك فى انك تستطيع ان تعيد على كل ما سمعته من هذا ، ولكنك تملأ صدرك بما لا تفهمه ولا تحسن الانتفاع به ، فانى لم ارد ان تخلع نعليك ، وانما اردت ان تكبر هذه الغرفة التى بلفتها والتى ستدخلها ، لانها غرفة العلم والادب ، ومستقر الاسفار والكتب ، ومهبط الوحي ان كان ما يقع فى نفس رجل مثلى يريد ان يكون ادبياً شبيهاً يمكن ان يسمى وحياً . فلو انك تدرس علم البيان درس فهم وانتفاع حقاً ، لما اعياك ان تفهم عنى ما كنت اريد . قال ذلك فى صوت غليظ يقطعه هذا الضحك الذى يصور السذاجة والمكر وحب السخرية فى وقت واحد ، ثم اخذ بيدي ومضى معى حتى اجلسنى على كرسي امام مائدة لم اكداضع عليها يدي حتى لمست كتاباً

وكانت الخادم فى أثناء ذلك ما زالت قائمة وفى يدها اللطيفة سراجها الصغير . فالتفت اليها مفضبا ضاحكاً معاً ، وهو يقول : وما وقوفك انت هنا كالصنم ؟ ثم خفض صوته قليلاً وقال : ومع ذلك فان منظرها جميل يصور بعض ما تركه لنا القدماء من آثار الفن .

ولم تنصرف الصبية بسراجها وانما ظلت فى مكانها حتى مد يده الى سلسلة تضرب فى الجوف فجذبها اليه فى شىء من العنف ،

حتى اذا هبط اليه المصباح المعلق في السقف اضاءه ورفعته ، وقال
للصبية انصرفي الآن وعشينا ان كان عندك طعام .

ثم جلس منى غير بعيد و اشار الى غلامى الاسود الصغير ان
استرح حيث تشاء ، وبدأ حديثه معى فى اهجسة الحازم الجاد .
فقال : والان يا سيدى يجب ان تدع اللغو فما جئنا هنا للغو
ولا للهو ، وان نأخذ فى الجسد فالجد وحده اقبلنا ، فحدثنى من
انت ، وسأحدثك من انا حتى اذا عرف كل منا صاحبه اخذنا فيما
ينبغى ان نأخذ فيه . قلت : فانك تنظم الامر كما تحب ،
تتحكم فى ذلك تحكما غريبا ! لا تسألنى عن شىء ، ولا تستشرنى
فى شىء ، فانى لم اطلب اليك ان اجىء الى هذا المكان ولا ان آخذ
معك فى لغو او جد . قال مقاطعا فانت لا تريد اذن أن تحدثنى عن
نفسك حتى احدثك عن نفسى . فسأحدثك عن نفسى ولكن بعد
ان أثبتك انى اعرفك حق المعرفة وكنت خليقا أن تعرفنى لولا أنك
حديث السن .

ثم قص على منى ما كنت اظن انه ابعد الناس عن العلم به
ولكنى لم ادهش لذلك حين ذكر لى اسمه وتحدث الى عن أسرته
وأبائى بانه من هذه القرية التى ليس بينها وبين مدينتنا الا ساعة
او بعض ساعة للذين يمشون على الاقدام ، وانه قد نشأ فى مدينتنا
او اكثر التردد عليها حتى كأنه نشأ فيها ، وانه قد تعلم القراءة
والكتابة فى نفس الكتاب الذى تعلمت فيه ، وقد عرف اخوتى
الذين سبقونى اليه ، وقد ظلت المودة متصلة بينه وبين بعضهم
حتى تركت أسرتنا هذه المدينة الى اقصى الصعيد . وحتى هبطنا
نحن الى القاهرة نطلب العلم فى مدارسها المختلفة .

منذ ذلك الوقت تقطعت الاسباب او رثت بينه وبين من
كان يود من اخوتى ، يسألنى عنهم واحدا واحدا ، وانا اجيبه
ثم أسأله عن نفسه كيف تعلم وماذا يعمل الآن ؟ فينبئنى بأنه
اتم درسه الثانوى منذ اعوام ، واتصل بوزارة الاشغال يعمل
فيها كاتباً فى بعض الدواوين يختلف اليها وجه النهار ، ويعكف

اخر النهار وجزءا غير قليل من الليل على القراءة والدرس حتى
كلف بهما اشد الكلف ، واصبح عمله في الوزارة وسيلة آلية ،
على حين هو عند أترابه من الشبان غاية لا يلتمسون غيرها
غرضا من اغراض الحياة

ولم يكذ يتقدم الحديث بيننا في هذه الشئون حتى اقبلت
الخدام تزيل ما على المائدة من كتب لتهيئها للاطباق وآنية
العشاء ، وقد زالت الكلفة بيننا واخذت اسمع منه واتحدث
اليه كما يكون الامر بين الفين قد بعد العهد بما بينهما من المودة
والحب والمخالطة ، فليس بينهما تصنع ولا تكلف ولا عناية بما
يقولان .

وما هي الا لحظات حتى كنا نلهو ونضحك من ذكريات لم
نلبث ان وجدناها مشتركة بيننا وكلها متصل بحياتنا في الريف



قال لي في بعض ما كان يقول وقد هدا نشاطه وانخفض صوته
ورقت لهجته ، وجعل يتحدث الى كأنما يهمس همسا وكأنما
يصدر صوته عن نفس متأثرة أشد التأثر ، وقلب يملؤه الود
والحنان ، واو اني استطعت ان ارى وجهه في تلك الساعة لما
شككت في اني كنت خليقا ان أتبين فيه مظاهر التأثر وآيات
الحنان .

قال لي في هذا الصوت العذب « هبني في القرية ، وهبك في
المدينة ، وهبني اريد ان ازورك لا قضي معك شطرا من النهار ،
فاين القاك ؟ »

قلت : « انما يزار الناس في دورهم » . قال : فاني لا اريد ان
ازورك لانني لا اريد كلفة ولا حرجا ، ولا تقيدا بهذه الاوضاع
التي يتقيد بها الناس ، ولا سيما الشباب والصبية ، حين يتزاورون
في الدور ، حيث الاباء والاخوة الكبار ، انما اريد ان القاك حرا ،

طلقا ، لا تحسب حسابا لشيء ، ولا لاحد ، واحب ان تلقى عن
راسك هذه العمة الثقيلة التى تضطرك الى وقار لا احبه لك ،
ولا ارضاه منك ، وان تخرج من هذه الثياب التى لا يلبسها الا
الشبان الذين تقدمت بهم السن الى ضحوة الشباب ، فانت فى
آخر ليل الطفولة ، وفى اول فجر الشباب . قد اخذت نفسك
تفتتح للحياة وتبتسم لها ، وتخرج من غفلة الطفولة وتحاول أن تقدر
اشياء ، وان تزنها وان تحكم عليها فى هذا الفرور الجميل
اللذيذ ، الذى يخيل الى الغلمان انهم رجال ، ويلقى فى روعهم ان
آراءهم موفقة دائما ، وأن أحكامهم صائبة دائما ، وأن الكبار من
الرجال يخطئون ، حين يسيئون الظن بهم ، ويرونهم صغارا ،
ولا يشركونهم معهم فى كبار الامور .

ألق اذن هذه العمة ، واخرج اذن من هذه الجبة ، ومن هذا
القفطان ، وعد الى ثوبك الفضفاض الذى كنت تلبسه قبل ان تهبط
الى القاهرة ، والذى كان يمتاز من ثياب اترابك من اهل الريف
بضيق كمسه وتكسرهما بعض الشيء عند اخرهما ، وبهذا
التكسر المنظم على الصدر ، وفى اعلى الظهر وبهذا الحزام العريض
الذى كان يتصل به عند الخصر ، ولكنه لا يحيط بالجسم كله وانما
هى قطعتان قد خيطتا على جانبي الثوب من يمين وشمال ، ثم
وصلت احدهما بالآخرى ازرار من الصدف . عد الى هذا الثوب
وضع على راسك ذلك القطاء الرقيق الابيض الذى يسمونه
الطاقية وما هو بالطاقية وانما هو شيء يصطنعه المترفون من
اهل المدن فى الاقاليم يقلدون به بعض قلانس الفرنجة ويسمونه
الطاقية الافرنجية

عد الى هذا الزى ، وسأخرج أنا من هذا الزى الاوربى وأعود
الى الزى الذى كنت أصطنعه فى الريف حين لم أكن أذهب الى
المدرسة فأدخل فى ثوب من الصوف ، مفتوح الصدر ، وأتخذ
على رأسى الطربوش ، كما يفعل المترفون من أبناء العمدة ، فأنت
تعرف انى ابن عمدة وسأزورك ماشيا لأركب لهذه الزيارة فرسا

ولا حمارا ، لانى أريد أن أكون حرا طلقا ، وأن أقضى معك وقتا لا يشغلنى فيه التفكير فى فرس أو حمار .

عد الى زيك القديم وسأعود الى زيبى القديم وأنتظر أن أزورك وحدثنى أين ألقاك ، على ألا يكون اللقاء فى بيتك فأنا أعرفه حق المعرفة ، ولا أريد أن أجلس فى المنظرة ، ولا أريد أن أجلس فى ظل هذه العنبات التى تقوم الى جانبها ، ولا أريد أن ألعب فى هذا الفناء ، الذى ينبسط أمامها والذى ترونه واسعا وأراه ضيقا ، والذى يحب أبوك أن يجلس فيه اذا كان العصر ، والذى يؤثر سيدنا أن يقرأ فيه القرآن كل يوم قبل أن تطلع الشمس

انما أريد لقاء حرا ، فى مكان حر ، ليس فيه رقيب يسمع لنا اذا تحدثنا ، أو يسألنا أين تذهبان اذا أردنا أن نمضى أمامنا وألا نلزم مكانا بعينه

قلت وقد أثر فى نفسى حديثه وصوته ولهجته وما أثار من الذكرى ، فرجعت الى ذلك الطور الذى كنت فيه حين فارقت المدينة لاهبط الى القاهرة ، ورجعت الى ذلك الزى الذى وصفه والذى كنت أعود اليه كلما عدت الى الاقاليم

قلت : فسئلاننى اذا فى طريقك جالسا أمام دكان الشيخ محمد عبد الواحد ، على أحد هذين الصندوقين اللذين يكتنفان الدكان عن يمين وشمال ، واللذين يجلس عليهما الناس لينفقوا بعض الوقت فى الحديث وفى النظر الى من يأتى من الغرب ، أو من يذهب اليه ، وإلى النساء وهن يدعبن الى الابراهيمية ليملان جرارهن ، ويعدن منها وقد أثقلت رؤوسهن هذه الجرار وهن يتحدثن همسا بينهن أثناء النهار ، كما يتغنين جماعة حين يغدون مع الصبح ، أو فى الاستماع الى حديث هاتين المرأتين اللتين تكتنفان الدكان عن يمين وشمال ، الا أن احدهما تلاصقه والاخرى قد أقامت دارها فى الناحية الاخرى من الشارع . أتعرفهما؟ قال : كما تعرفهما ، فأما الاولى فنوبة ، وأما الاخرى فأما محمود كلتاهما تجلس على باب دارها وتحدث الى صاحبتهما ألوان

الحديث ، فى صوت مرتفع ، فيه عبث ودعابة ولين ، وشباب المدينة يكلفون بالجلوس عند الدكان ليسمعوا لحديثهما وليدخلوا فيه من حين الى حين ، حين يكون الحديث دعابة ، وما أكثر ما يكون الحديث دعابة بينهما ، فهما لا تحسنان فى الحياة الا الدعابة وكسب المال . قلت : فستلقانى جالسا على أحد هذين الصندوقين ، فقد تعودت أن أقضى وجه النهار مع صاحب الدكان وأخيه . أتحدث مع أولهما فى أخبار الشيخ ماضى وآثاره وكراماته ومقاماته ، وأسمع من ثانيهما ما يقرأ على من كتب القصص والوعظ ، لا ينقطع حديثنا ، ولا تنقطع قرائتنا الا حين تأتى امرأة أو فتاة لتشتري بعض الملح ، أو الفلفل أو الخيط ، أو ما يباع عندهما من سقط المتاع .

قال : فقد انحدرت اليك من المغرب ، ولم أكد أهبط من الجسر حتى مررت بهذه الدور التي تصرفها فحييت حسن كوزو وهو جالس أمام داره ومن حوله امرأته وبناته وأبنائه ، وهم يلفطون لفظهم المتصل ثم مررت بدار عم حسنين ، ولم ألقه من حسن الحظ ، فلو قد لقيت لاسترقفتنى ولسألتنى : فيم أقبلت ؟ وكيف تركت أبى ؟ وما بال أبى لا ينحدر الى المدينة ؟ وما أشك في أنه كان سيستبقينى ولعله كان يلح على أن أتغذى عنده فهو حريص على أن تتصل المودة بينه وبيننا ، ولكننى جزت الدار سالما لم ألق أحدا ولم أتعرض لهذا الإكرام الذى كنت أخشاه وقد رأيتك من بعيد وتبينت أنك لم تكن تتحدث الى صاحب الدكان ولا تسمع لقراءة أخيه ، إنما كنت معتزلا على صندوقك ، قد انثنى أعلاك على اسفلك ، وقد وضعت رأسك بين يديك ، والناس من حولك قائمون ، منهم من يشتري ، ومنهم من ينظر ، ومنهم من يمنح طرفه زنوبة ، ومنهم من يمنح طرفه أم محمود ، وهذا الشيطان المارد ابن العمدة ، يذهب فى الشوارع ويجىء ، متحدثا متفنيا ، يلقي نظره خلسة الى هذه الحارة عن يمين الدكان ، حيث يقيم سيدنا وامراته الشابة ، وحماته العجوز ، وحيث تقيم عالية أم غريب .

وهأنذا انتهى اليك فأضع يدي على كتفك ، وها أنت ذا تدعرك
لمكانى منك ، ولكنك لا تكاد تسمعنى أحييك حتى تطمئن الى وتبتسم
لى ، وتدعونى الى الجلوس ، ولكنى أبى ذلك عليك ، وأنهضك وأخذ
بذراعك ثم نندفع معا فى هذا الشارع الذى يكاد يواجه بيت
زنوبة ونمضى معا الى القناة .

أنظر ها نحن هذان قد بلغنا القناة ، فاما عن يميننا فحديقة
جرجس أفندى ، ثم المنحدر الى بيتكم ، واما عن شمالنا فخيام
العرب الذين اختاروا هذا المكان مضربا لخيامهم ، والذين يخفرون
هذا الطرف من أطراف المدينة ، الى أى الوجهين تريد أن نمضى
أتريد أن نمضى الى يمين لنبلغ المدينة أم تريد أن نمضى
الى شمال نحو المغرب لنبلغ الابراهيمية ، فنأوى الى ظل
شجرات التوت ، أو نمضى امامنا فى هذه الحقول التى لا تكاد تنتهى .
أم تريد أن نعبث فى القناة فليس عبورها شاقا ولا عسيرا ، فهى جافة فى
هذه الايام ، أليس تحس من حولك هؤلاء الصبية ، وهم يلعبون
فيها ، ويلتمسسون ما تخلف فى طينها من صفار السمك ، الى أين
تريد أن نمضى ؟ اننا ان عبرنا القناة ، لم نمض غير قليل فى هذا
الفضاء الواسع الطلق حتى نبلغ الخط الحديدى ، فاذا عدونا فقد
انتهينا الى المدينة من طريق قريبة ، الى أين تريد أن نمضى ؟

وما أرانى محتاجا الى أن أسمع منك جوابا . فأنت تريد من غير
شك وأنا ايضا أريد أن نأخذ طريقنا عن يمين فانها يسيرة مألوفة ،
وهى طريق الناس حين يأتون من المدينة أو يذهبون اليها ، وهى خليقة
ان تقدم لنا من ضروب اللهو واللوان العبث والمتاع ما نبتغى . فليس بيننا
وبين حديقة المعلم الا خطوات . ها نحن هذان قد بلغناها .
وآثرنا أن نميل اليها فنحنى من ريحائها ، ونقتطف من أثمارها ،
ونستظل بأشجارها ساعة لتحدث فيما تعودنا ان نتحدث
فيه ، انها لجميلة هذه الحديقة لم تتخذ زينة ، ولم يعمل فيها
المنسقون ، وانما هى حرة مطلقة ! ينبت فيها الزهر والشجر كما
يريدان فى غير قيد ولا نظام ، وانها الجميلة حين تتقدم فى رشاقا

وخفة بما تحمل من زهر وثمر ، وورق نضر واغصان لدنة الى القناة ، كأنها تريد ان تهدي هذا كله الى هذا الماء حين يجري فيها قويا هادئا موقور النشاط مع ذلك كأنه انه شاب من آلهة الاساطيره .
أنا أعلم انك تحب هذه الحديقة وتجد لذة في أن تخلو فيها الى نفسك فتقص عليها ما تتصور من الاحداث والخطوب ، أو تعيد عليها ما تسمع من القصص والاحاديث . وما ملت بك اليها الا لانى أعلم انك تحبها وتؤثر ان تقضى فيها ساعات بعيدا عن الناس ، قريبا منهم في وقت واحد . أنا أعلم انك لا تحب العزلة الخالصة ، ولا تحب الخلطة الخالصة ولكنى احس الان كأن مكانك ينبو بك ، وكأنك لا تطمئن الى الحديقة أو كأن الحديقة لا تريد ان تتلقاك بمسا تعودت ان تتلقاك به من البشر والانس والحنان .

أحس ان جسمك كله يضطرب كأنه يكره السكون ، ويدفع الى الحركة دفعا . ماذا تنكر من هذه الحديقة ؟ أو ماذا تنكر منك هذه الحديقة ؟ لم لا تريد أن تخلو الى كما تخلو الى نفسك ، وان تقص على كما تقص على نفسك ما تعيده عليك الذاكرة أو ما يخلق لك الخيال . ها أنت ذا أشبهه شيء بالجسود الجموح الذى يعرض شكيمته ، ويضرب الارض بسنابكه ، ويكاد يخرج من جلده مرحا وشوقا الى العدو . الى أين تريد ان نمضي ؟

وهو يقول هذا كله في لهجة جد واقتناع ويقين حتى ينسبني مكانتي منه ، ومكانه منى ، ومكاننا من القاهرة ، وحتى يقنعني بأننا صبيان ، أو شابان نقصد الى النزهة في ريفنا ذلك البعيد ، وقلة سمعت منه ، وآمنت له ، وهممت أن أجيبه ، ولكنه منطلق لا يريد أن يقف ، متدفق لا يريد أن يهدأ يسأل ولا ينتظر الجواب ، وانما يجيب وهو يمضي في حديثه لا يلوى على شيء ، وأنا أسمع وأتبعه وهو يسرع في الحديث ، وكأنه يسرع فى الحركة ، حتى يعيننى سماعه ، ويعجزنى اتباعه . ولكنه ماض فى حديثه ، ماض فى حمله ، لا يقف عند شيء ولا يأوى على شيء . والغريب انه كان يتحدث فيشرف

نفسى مثل ما يثير فى نفسه من الذكرى . ثم يتحدث
هنى وعما أحب فكأنما أنا اتحدث عن نفسى .

قال : فانك لا تريد البقاء فى هذه الحديقة لان نفسك لا تنهى للخلوة
ولا للحديث الهادىء المطمئن ، وانما انت اليوم مهيا للحركة
والنشاط الجسمى ، وما أرى انك تستريح حتى تكلف نفسك بالمشى
جهدا ثقيلا ، واولا انك شديد الحياء ، وانك تخشى المصاعب
والعقبات ، لا تترت العدو ولكافت بالجرى السريع . فهل الى الطريق
العامة فليس لك فى هذه الحديقة أرب منذ اليوم .

هلم وليكن مشينا سريعا يشبه العدو ، ولكنك لم تطاوعنى الا
قليلا وهانا ذا أحس ان قدميك تثقلان وان نشاطك ينال منه
الفتور ، وانك تؤثر مشيا رزينا هو الى التلكؤ ادنى منه الى الجدة
والسرعة . لقد فهمت ان مكانك من هذه البيوت الاربعة التى
تنظم على شاطئ القناة فى نسق بديع وقد امتدت امامها حدائقها
الواسعة ذات الشجر الملتف والاغصان المتدلية على الاسوار .

وانت تريد ان تسعى سعيها هينا الى جانب هذه الاسوار ، وان
تداعب بيدك هذه الاوراق الخضرة النضر لانك تجد فى مسها راحة
ولذة ونعيما لنفسك وهندوء القلب الذى قلما يظفر بالهدوء .

تريد أن تقف وان تعبت بهذا اللبلاب الذى يتلوى على سمر
المأمور ، تريد ان تداعبه وتلاعبه وتقوم اعوجاجه وتصلح التواءه ،
ولكنك تعلم انه لا يستقيم ، ولا يجب الاعتدال . ثم انت تريد ان تطيل
الوقوف عند بيت الملاحظ . وما ظن الا أن نفسك تنازعك الى ان

تطرق الباب ، وتدعو عثمان يدعوك الى الدخول لتحدث اليه
احدهما ان يستجيب لك وان او محمودا . فمن يدري ! لعل
او اليه والى أخيه ساعة من نهار . انك لشديد المكر ، وان نفسك
لشديدة الالتواء . لم تكذب على نفسك وتكذب على ؟ انك لا تريد
عثمان ، ولا تحب الحديث الى محمود ، وانما تريد ان تدخل
الدار وتقطع اليها هذه الحديقة المريضة متلکنا بعض الشيء .

متكلفا بمض الاناة والمهل ، حتى اذا بلغت الدار وأجلست فى هذه
الحجرة المتواضعة التى لاتمس القدم فيها أرضا عارية كانتى
تمسها حيث تلعب فى بيتك اوحى تجلس عند الدكان ، وانما
تمس أرضا قد رصفت بالحجارة وفرشت عليها البسط ، وهناك
فى هذه الحجرة لاتلقى الى صاحبك الا احدى اذنيك ، او بعض
ما تستطيع أن تلقىه منها . فأما اذنك الاخرى فمرسلة الى آخر
الدار ، ومعها نفسك كلها . قل الحق . انك لاتريد عثمان
ولا يبتغى الحديث الى محمود ، وانما تريد ان تسمع احد هذين
الصوتين اللذين تشيع فيهما العذوبة كما تشيع النضرة فى
الفصن المورق اللدن . بل انت أسعد الناس أن أتيح لك
الاستماع الى الصوتين جميعا .

أيهما أثر عندك وأحب اليك ؟ صوت هذه الفتاة الناهد التى
تسمى عزيزة والتى توشك ان تلعب معك ومع اخويها لولا
ما تأخذها به امها التركية وابوها الالبانى من تكلف الوقار
والاحتشام . فهى تجلس اليكم وتسمع منكم وقد تشارككم فى
الحديث ، وقد يضحكها ما تخوضون فيه ، فاذا ضحكها
يضطرب فى الحجرة مشرقا صافيا مضيئا كأنه الباور . أم صوت
اختها امينة هذه التى نيفت على العشرين ، وجاوزت طور
اللعب ، وتزوجت ثم طلقها زوجها فعادت الى أسرتها كئيبا محزونة
هادئة الصوت ، ولكن صوتها الهادىء يثير فى قلبك وجلا ، وفى
نفسك اضطرابا ، وفى اعمساق ضميرك قلقا لاتبين اصله ، ولا
سره ، ولكنك تخافه وتحبه معا . أى الصوتين أثر عندك وأحب
اليك ؟ انى لاخشى ان تكون فاجر النفس ما جن القلب ، مسرفا فيما
تتيح لضميرك من حرية . انك لتحب الصوتين جميعا ،
وتألف الاختين جميعا ، وتحب ان تنعم ما وسعك النعيم بما
تثيران فى نفسك من هذه العواطف الحادة المبهمة الفامضة ، وانك
لتسمع لهما اذا تحدثتا او ضحكتا او جاءتا بشىء من الحركة

فتعنى عنهما هذا كله ، وتسجله في نفسك تسجيلا حتى اذا عدت الى دارك ، وآويت الى مكانك الذي تعودت ان تعتزل فيه ، اخذت تعيد في نفسك ما سمعت من كلام ، ومن ضحك ، ومن غناء ، واخذت تتخيل ما احسست به من حركة ، واخذت تتعمق هذا كله وتستخرج منه صوراً ومعاني وعواطف وخواطر ، لاتحصى ولا تستقصى ولكنها تنسيك نفسك واهلك ودارك وتنتهي بك الى عالم غريب هو احب اليك ألف مرة من هذا العالم الذي تعيش فيه . قل الحق ! ألسنت أصور ما تجد ، وأقص ما تحس ، واحداثك بما تحب ان اتحدث اليك فيه ، ولكنك قد اطلت الجلوس بين عثمان ومحمود ، والاستماع لعزيزة وامينة ، وهذا صوت المؤذن ينتهي الينا داعيا الى صلاة الظهر ، وسيقبل الملاحظ بعد وقت قصير ، ولئن بقينا لثدعين الى الغداء ، وانا اعسرف ان حيائك وادبك يايان عليك ان تستجيب لهذا الدعاء ، وان نفسك تنازعك الى البقاء . وما أظن الا انك لو ارسلت نفسك على سسجيتها لاقمت ، ولا حتمت ساعة الغداء هذه الثقيلة . لتستمتع بعسدها بساعات طوال ، تنعم فيها بهذين الصوتين وما فيهما من فتنة وروعة وحنان . ولكن لاسبيل الى الاقامة . وماذا نصنع بحيائنا ؟ وماذا نصنع بأدبنا ، وكيف تلقى امك ؟ وكيف تجيبها ؟ وكيف تثبت لومها العنيف حين تصورك ان الفتيان الذين يحسن ادبهم لا يبقون في الزيارة الى ان يدركهم الغداء ، ولا يستجيبون الى الطعام ، اذا لم تسبق دعوتهم اليه .

هلم ايها الصديق البائس الحزين ودع امينة وعزيزة ، فقد يتاح لك ان تراهما اذا كان الغداو اذا كان المساء . فأما الآن فصدقني ليس لنا في هذه الدار مقام .

أما الآن وقد تجاوزنا عتبة الدار ، واغلق من دوننا الباب ، ورجع عثمان ومحمود أدراجهما في الحديقة واستقبلنا القناة ، فوقفنا على شاطئها لحظة مترددين ، نعود الى حيث كنا

بعد ان تقدم النهار ؟ أم نمضي عن يمين الى المدينة وان عرضنا ذلك لشيء غير قليل من اللوم .

ثم آثرنا اللهو والعبث فأخذنا طسريقنا عن يمين نحو الخط الحديدى نسعى هادئين . اما الآن فانى احمد جدك وحزموك وشجاعتك واصرارك على ان تنصرف حين هممنا بالانصراف ، وابعائك على عثمان ومحمود وابعائك بنوع خاص على عزيزة وأمينة ، وقد كانوا جميعا يلحون علينا فى ان نبقى ويرغبوننا فى البقاء ، يعرض عثمان ومحمود علينا ان يظهرانا على ما عندهما من اعاجيب القاهرة ، هذه اللعب التى لا تنتشر فى الريف ، ولا يالفها اهل الاقاليم ، وتعرض علينا عزيزة العزف على البيانو . وتعرض علينا أمينة القراءة فى بعض القصص ، وانت مصمم على الانصراف برغم نفسك التى كانت تنازعك الى البقاء نراعا شديدا .

على انى لا أفهم كلفك باستماع لعزيزة وأمينة ، وافتتانك بأحاديثهما هذه التى يلتوى فيها لسانهما بلهجة أهل القاهرة فى تأنق وتكلف وتعمد للفتنة ، كأنما تريد كل واحدة منهما ان تدل على نفسها ، وتنبهنا الى انها ليست منا ، والى اننا لسنا منها فى شيء ، انما هى من هذا العنصر الممتاز الذى لا ينطق الجيم كما ننطقها ، ولا يحول القاف كما نحولها الى جيم غليظة وانما يحياها الى همزة رقيقة خفيفة حسنة الموقع فى الاسماع ، ولا يمتلىء فمه بالكلام يهدر به كما تهدر الابل ، وانما يضيق به ويتلطف فى ارساله ويجريه هادئا حلوا رقيقا ، فيخرجه احسن مخرج ، ولا يلقيه كما نلقيه نحن القاء الجنادل والصخور . لا يعجبني شيء من هذا لانى اراه تكلفا وتصنعا . ومن يدري لعلنا ان رأيناها فى القاهرة ، واستمعنا لهما فى بيئتهما الطبيعية ان نجد هما اقل تكلفا وأدنى الى الفطرة ، ولعلهما يومئذ ان تجدا الى نفسى الفليضة سبيلا . اما الآن فان قلبى مغلق دونهما اغلاقا ، وانى لأوثر ألف مرة عليهم فتياتنا الريفيات ، وما يمتزن به من حياء حلو وخفر ناعم ، وحديث عذب على غلظته ، وصوت محبب الى النفوس على

ما يضطرب فيه من بعض الجفاء ، ستفضي وستشور وستنكر ذوقى
أشد الانكار ولكنى لا أتردد مع ذلك فى أن أعلن اليك انى أوثر
كلمة بنت عالية وأخت غريب ، على عزيزتك هذه المتكلفة
المتصنعة . وأوثر خديجة بنت محبوبية وأخت على ، على أمينتك
هذه التى ترى أن ليس على الأرض امرأة تعدلها أو تدانى
حظها من الرقة والجمال .

انى من أنصار الحسن الطبعى الذى لا يجتلب ، ولا يشتري ، وإنما
تخلعه الطبيعة وتفيضه على الوجوه والنفوس ، هذا الحسن
الذى تحدث عنه المتنبى . اذكر بيته ؟ انه مشهور :
حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفى البداوة حسن غير مجلوب

٦

وكان هذا البيت من شهر المتنبى قد أيقظ صاحبى من نوم
عميق ، وردده من هيام بعيد ، ونبهنى انا الى مكانى منه ، والى
مكانه منى . فما كان لشبابين جاهلين من شباب الريف أن
يديرا بينهما مثل هذا الحديث ، أو يذكرأ مثل هذا الشعر . وابن
حديث الريف الساذج اليسير الذى لافلسفة فيه ولا تعمق من
هذا الحديث الطويل الذى اندفع فيه صاحبى كأنه السيل لا يردده
شئ ، والذى أخذ يتكلف فيه ما تكلف ، ويصطنع فيه ما اصطنع
على غير شعور من الفلسفة والتعمق والدقة فى التفكير
والتعبير . فلما سمع صوته يشد هذا البيت ثاب الى نفسه ،
وثبت انا الى نفسى واليه ، فلبث دقائق صامتة لا يقول شيئاً كأنما
كان يستجمع قواه المفرقة ، ويدعو اليه نفسه الشاردة ، وينتظر أن
يعود اليه عقله وقلبه من مدينتائلك فى الريف ، فلما استجمع من
ذلك كله ما كان يريد قال فى صوت هادئ عميق : أين أنا ، وماذا
كنت أقول ؟ ثم أرسل ضحكته العريضة المخيفة ونهض قائماً وهو
يقول : أما انا قد طعمنا حتى اكتفين . هذه الصبية البهاء قد

أقبلت فوضعت طعامنا على المائدة ولم يخطر لها أن تدعونا إليه ،
 كأننا ظننت الحمقاء أنى رأيتها أو سمعتها أو أحسست مقدمها
 وكأنما لم تشهر أنا كنا غائبين نسعى في مدينة من مدن الريف ،
 وهذا خادمك الاحمق قد جلس على كرسيه عند باب الغرفة وهو
 يفظ معنا في نومه العميق كأن أحاديثنا لم تعجبه ولا تروقه
 ولا تصل الى نفسه الغليظة المحجبة بحجب الجهل والجفوة والفظة .
 ثم ثاب الى ووضع يده على كتفى وهو يقول : وانت ماذا أحسست
 من هذا الحديث ؟ ولم يمهأنى ، ولم ينتظر منى جوابا ، وإنما اندفع
 يقول ما أرى إلا أنك ظننت بى الجنون وأخذت تسأل نفسك أين
 أنت ، وتمقت الساعة التى لقيتك فيها وتلوم نفسك لأنك طأعتنى
 واستجبت لدعائى ، وتشفق ألا تتاح لك العودة الى أخيك ، ومن
 يدري ! لعل المتنبي قد أنقذك حين جرى هذا البيت من شعره على
 لسانى فردنى الى نفسى واليك ، ولعلك أن بقيت تسمع لى وأنا
 أمضى فى هذا الهذيان كنت مضطرا الى أن تنتهى آخر الامر الى الهلع
 والجزع ثم الى الاستغاثة والصياح ، ومع ذلك فثب الى نفسك وأمنحنى
 بعض عنايتك وحدثنى : أليس هذا فنا من الشعر ونحسوا من
 انحائه ؟ لا تظن أن القدماء من الشعراء كانوا يصنعون شيئا غير
 هذا حين كانوا يقفون ويستوقفون على الاطلال والديار ، وحين كانوا
 يذكرون ويذكرون بمن كان يقيم فيها ثم ارتحل عنها من الاحبة
 والاخلاء ، وحين كانوا يتبعون الظاعنين ويصفون ماسلكوا من
 طريق ، وما عرض لهم فى سفرهم من خطوب ، وما أنضوا من ابل
 وما وردوا من ماء آجن وما انتهوا اليه من مرعى . انما كانوا يصنعون
 مثل ما صنعت ويهيئون مثل ما هممت ، ويتسبون انفسهم كما
 تسبت نفسى ، ويرسلون قلوبهم كما ارسلت قلبى على جناحى هذا
 الطائر الخفيف الرشيق الذى يحسن الاسراع ويحسن الابطاء
 ويحسن المضى ويحسن الوقوف وهو الذكرى .

وحدثنى أفهمت شسيتها من حنين القدماء على وجهه حين
 قرأت ما قرأت من شعر امرىء القيس ، وغير امرىء القيس من

هؤلاء الذين كانوا يحسنون الذكرى ويجيدون تصوير الوفاء ، انما هم عندك ألفاظ تقع في أذنيك كما يقع غيرها من ألفاظ ، تفهم الظاهر من معانيها ، فان أعجزك الفهم سألت كتابا من كتب اللغة فلا ينبئك الا بظاهر من معانيها . لتكاد هذه الالفاظ تتجاوز أذنيك الى عقلك فضلا عن أن تتجاوزها الى قلبك والى ضميرك فتشير فيهما عاطفة او هوى او ميلا ، وتدعوك الى أن تقدر الحياة كما ينبغي أن تقدر الحياة . صدقنى انكم لا تدرسون الشعر ولا تدرسون الادب ، وانما تدرسون الالفاظ ومعاني وصورا ليست من الشعر ولا من الادب فى شيء .

قلت وقد أعجبني حديثه وارضتني آراؤه ، ولكنى على ذلك ضقت بهذا السيل الذى لا يقف ، واشفقت من أن يمضى فيه كما مضى فى الذكرى آنفا ، ومن أن نشفق بقية الليل كما انفقنا أوله ، واشفقت بنوع خاص من أن يلهينا هذا الحديث المتصل والسيل المتدفق عمانحن فى حاجة اليه من التفكير فى العودة الى بيتى ، فما أشك فى أن غيبتى قد طال ، وفى أنها مستطول ، وفى أنها مستلحظ ، وفى أنى سأسأل عنها اذا كان الغد .

قلت ضاحكا : فما يمنعك أن تعلن آراءك هذه الى الناس فى صحيفة من الصحف او فى محاضرة من المحاضرات ، بل ما يمنعك أن تلقى على الناس دروسا فى الادب ، فيسمع لك الشباب ، وسينتفعون بما تلقى اليهم من حديث ؟ ثم ما يمنعك أن تمضى معى فى هذا الحديث أثناء العشاء ، وبعده وأثناء الطريق مادمت قد ضمننت لى أن تصاحبني الى بيتى البعيد قال وهو يضحك ضحكا غليظا : قل ما يمنعك أن تكف عن هذا اللغو وأن تأخذ فى الجد فقد زعمت لى أننا لم نجتمع هنا للغو وانما اجتمعنا لنجد

وهذا حق ، فما فى شيء من هذا كنت أريد أن أتحدث اليك ، وما الى شيء من هذا دعوتك الليلة ، وانما هو تعارفنا وتحدثنا عن الريف قد شط بى ودفعنى الى الاستطراد ، فلنعد اذا الى ما كنا نريد أن نأخذ فيه ولنقبل على طعامنا قبل كل شيء

وأخذنا فى حديث جديد لم يصرفنا عن الطعام ، ولكنه لم يسجل عودتى الى بيتى ، فقد كان الجسد الذى يريده صاحبى انه يجب أن يكون بينه وبينى تعاون فى الدرس ، يعلمنى بعض ما عنده ، وأعلمه بعض ما عندى . فهو يرى أن أمرى فى الجامعة لا يستقيم الا اذا تعلمت لغة أجنبية وألمت ببعض هذه العلوم التى كنا نجهلها فى الازهر جهلا تاما ، والتى كان جهلنا اياها يخيّل الى والى أصحابى أننا نسمع من المحاضرين فى الجامعة الاعاجيب مع أننا لم نكن نسمع منهم الا أيسر الاشياء وأعمونها .

وهو كان يريد أن يمنحنى من ذلك ما ينقصنى ، لا يسألنى على ذلك أجرا الا أن أعوده معاشرة كتب الازهر ، والتصرف فى علم الازهرين وكانت علوم ثلاثة من علوم الازهر تخلبه وتشوقه بنوع خاص ، وهى المنطق والفقه والاصول . فأما المنطق فقد كان أمره يسيرا ، وكنت أرى أنى أستطيع أن أقرأ معه كتابا من كتبه المختصرة . وأما الفقه والاصول فقد كان أمرهما أعسر من ذلك وأشق . وأنى لى أن أعلمه علما لا أحسنه ، وما أظن أنى سأحسنه فى يوم من الايام؟ وهو مع ذلك مصمم على أن يدرس المنطق والفقه والاصول وعلى أن يعلمنى الفرنسية ، ويقرأ معى ما أحب من التاريخ وما أشاء من هذه الكتب التى لا بد من قراءتها لمن يريد أن يعيش فى هذا العصر الحديث عيشة لا غربة فيها . وكان حوارنا طويلا شاقا ملتويا فيه كثير من الاستطراد حتى لقد انصرفنا من داره وقد كاد يسفر الصبح . وما كدنا نبلغ حينافى أقصى الجمالية حتى سمعنا المؤذن ينبىء الناس بأن « الصلاة خير من النوم » ، وكنا لم ننم فعندنا أدراجنا وفى ذلك اليوم جلس معى الى أستاذ الاصول رجل ليس على رأسه عمامة بل على رأسه طربوش .

وافترقنا بعد الدرس على أن نلتقى فى الجامعة كل يوم اذا كان المساء . وعلى أن نرتب أمرنا بيننا ، يعلمنى الفرنسية وأعلمه

المنطق . ومن ذلك اليوم لم نفترق حتى أتيح له أن يسبقنى الى باريس .

كنا نلتقى فى قهوة بشارع قصر النيل قريبة من الجامعة قبل أن تبدأ المحاضرات بساعة أو أكثر من ساعة ، فنأخذ فى أحاديث مختلفة ، وكثيرا ما كان يشـاركنا فى أحاديثنا بعض الطلاب حتى اذا أقبلت ساعة الدرس نهضنا اليه . أما هو فكان ينهض متثاقلا دائما ، وأما أنا فكنت أنهض خفيفا شديد النشاط . وكان يضحك من خفتى . وكنت أضيق بثاقله ، وكان يقول لى هون عليك فليأتين يوم تنصرف فيه عن هذه الدروس انصرفا ولم أكن اذا دخلنا غرفة الدرس أفر من مجلسه ، ولم يكن ينغص على الاستماع للاستاذ ، حتى اذا انتهينا من الاستماع انصرفنا الى دارة أو الى قهوتنا فى شارع كوبرى قصر النيل فزعم لى انه يعلمنى الفرنسية ، وزعمت له انى أعلمه المنطق ، والحق أننا لم نكن نصنع من هذا شيئا ، وانما كنا نمضى فى لغو مختلف متصل كهذا انذى صورت بعضه آنفا ، وكنا ننفق فى هذا اللغو خير أجزاء الليل ، ثم نفترق ، فأما هو فكان ينفق بقية الليل فى القراءة أو الكتابة ثم فى نوم قليل ، ثم يصبح فيغدو على ديوانه . وأما أنا فكنت أنفق بقية الليل فى تفكير طويل مضطرب لا يكاد يذيقنى النوم الا غرارا ، فاذا دعا المؤذن الى الصلاة أسرع الى الازهر ، وقضيت وجه النهار مستمعاً للاساتذة أو دارسا مع الطلاب حتى اذا أقبل المساء التقينا كدأبنا فى كل يوم .

وانقضى العام الاول والثانى والثالث من حياتنا فى الجامعة على هذا النحو ، لم يتقدم هو فى درس المنطق ولم أتقدم أنا فى درس الفرنسية ، ولكننا تقدمنا فى ادارة هذه الاحاديث الطويلة المختلفة التى تلم بكل شىء ولا تكاد تتقن شيئا ، ولكنها تفتح القلوب لآلوان من العواطف وتهيب النفوس لضروب من الحواطر ، وتغير الطريق التى كان كل واحد منا قد رسمها لنفسه فى الحياة .

كان يريد أن ينفق حياته موظفا يشقف نفسه ثقافة جديدة
فى كل يوم ويلتمس لذته فى القراءة والكتابة والحديث .
فأصبح أشد الناس بفضالديوانه وزهدا فى عمله ، ورغبة فى أن
يهجر مصر ويعبر البحر الى بلد من هذه البلاد التى يطلب فيها
العلم الواسع والادب الراقى ، وتتغير فيها الحياة من جميع
الوجوه . وكنت أريد أن أكون شيخا من شيوخ الازهر مجددا
فى التفكير والحياة على نحو ما كان يريد المتأثرون للشيخ محمد عبده
أستعين على ذلك بما أسمع فى الجامعة ، وما أقرأ من الكتب
الترجمة ، وما أجد فى الصحف ، وما ألتقط من أحاديث المثقفين ،
فأصبحت وأنا أشد انصرافا عن الازهر ، ونفورا من دروسه
وشيوخه ، وحرصا على أن أهجر مصر وأعبر البحر الى بلد من هذه
البلاد التى يطلب فيها العلم الواسع والادب الراقى وتتغير
فيها الحياة من جميع الوجوه ولم يكن لصاحبى ولا لى اذا
التقينا حديث الا هذه الهجرة وأسبابها والا هذه الاحلام
العريضة البعيدة التى لا حذلها ، والتى تستأثر بنفوس الشباب
حين يفرضون على أنفسهم بلوغ غاية بعيدة شاقة . حين تخيل
اليهم امالهم أن بلوغ هذه الغاية أمر يسير .

ثم أصبحت ذات يوم مشغول النفس بما كنا نتحدث فيه أمس ،
وانى لجالس فى بيتى لم أذهب الى الازهر ، وما كان أكثر تخلفى
عن الازهر فى هذه الايام وانقطاعى الى خادمى الاسود
الصغير يقرأ لى قراءة محطمة أقيمها أنا ، وأصلح معوجها فى
نفسى . يقرأ لى مرة فى ديوان من الشعر ، ومرة فى كتاب من
كتب التاريخ ، وحينما فى قصة من قصص العامة ، وانى لجالس
ذات يوم الى خادمى الاسود وهو يقرأ على ديوان البحرى ، واذا
الباب يطرق طرقا عنيفا ، واذا صاحبى يدخل وكأنه العاصفة ،
واذا هو يدعونى فى صوت سريع الى أن أنهض فألبس ثيابى
وأخرج معه ، وان اسرع ، فان العربة تنتظرنا ، وأحاول ان
اسأله كيف خرج من ديوانه وما هذه العربة التى تنتظرنا ، والى

أين يريد أن يذهب بنا ، ولكنه لا يجيب ، وإنما يستعجلنى ويلج
فى الاستعجال . حتى إذا تركته وذهبت لاليس ثيابى سمعته هو
يذهب ويجىء كالمجنون ، ويتغنى فى صوته الفليظ بما يحضره من
الشعر . ثم أخرج له فيخطفنى خطفا . ويعدو بى عدوا حتى
يلقىنى فى العربة القاء ، ثم يأمر السائق أن يمضى الى مكان كذا
حيث يقيم فلان .

ثم يهدأ بعض الشيء ، وينبئنى بأن الجامعة قد أعلنت فى الصحف
أنها سترسل طلابا الى أوروبا ، وقد حددت موعد الامتحان وأنه
قد اقبل الى ، لالقى فلانا وفلانا ، وكلهم من أعضاء مجالس الجامعة
ويجب أن أوصيهم به خيرا . فهو واثق بأنه سيجوز الامتحان على
أحسن حال ، ولكنه يخشى أن يفلبه على الفوز بالبعثة أولئك
الشبان الذين يتوسط لهم أصحاب الجاه .

وما دمت ياسيدى تعرف فلانا وفلانا وفلانا من أصحاب الجاه
وأعضاء الجامعة فليس لك بد من أن تتحدث إليهم ، ومن أن تتحدث
إليهم اليوم ومن أن تتحدث إليهم امامى . لهذا كله تركت
عملى ، ولهذا كله استأجرت هذه العربة ، ولهذا كله استعجلتك
هذا الاستعجال ، وما هى الا أسابيع حتى تم لصاحبى ما كان
يريد ، وأصبح عضوا فى بعثة الجامعة وأخذ يتهيأ للرحلة الى
باريس .



يونيو فى . . .

ليتنى لم أسمع لك أيها الصديق ، فقد كنت أؤثر أن
أرتحل الى فرنسا دون أن أذهب الى ريفنا الحزين لأرى أبوى وأمرتى
ولارى قريتنا ، ولأملأ نفسى من هذه المشاهد الجميلة التى نشأت
فيها ، وكنت أرى أنى سأجد فى هذه الرحلة القصيرة الى الريف
ألا ما يحسن أن أتجنبها وأن أستقبل الحياة الجديدة بنفس
مشرقة وقلب لا يجد حزنا ، ولا يحس لوعة ، ولا يأسى على شئ .

وأنا أكره الوداع وأرى في السفر كما يقول بعض الشعراء الفرنج نوعا من الموت ، ولا أحب أن أتلقى الموت مهما يكن يسيرا على علم به ، وانتظار له ، واشفاق منه . وإنما أؤثر أن يفاجئني مفاجأة ، وأن يختطفني اختطافا ، وأن أخرج من الحياة جاهلا بخروجي منها كما أقبلت على الحياة جاهلا باقبالي عليها .

لقد كنت شديد التردد في الذهاب الى الريف . أحس من نفسي ضعفا شديدا على احتمال هذا الوداع المؤلم ، وداع هذين الشيخين اللذين لم يكونا يَحتملان اقامتي في القاهرة بعيدا عنهما الا كارهين ، فكيف بهما اذا علما أنني لن أقيم في القاهرة . ولن تكون بينهما وبينى ساعات ، ولكني سأعبر البحر الملح العريض الى بلاد نائية لا تحسب المسافة بيننا وبينها بالساعات ، وإنما تحسب بالايام . لقد كانا يكرهان أشد الكره اقامتي في القاهرة ، هذه المدينة التي لا يتكلم أهلها كما نتكلم ، ولا يعيش أهلها كما نعيش ، والتي يملؤها الفساد ويملؤها الصلاح في وقت واحد ، والتي يجري في شوارعها الترام والتي يكثر بين أهلها المحتالون والسراق ، والتي يخرج الرجل من بيته فيها فلعله لا يعود اليه . فكيف بهما حين يعلمان أنني سأقيم في ذلك البلد البعيد الغريب الذي لا صلة بينه وبيننا في لون من ألوان حياتنا المعروفة . والذي لا يعلمان من أمره الا انه بلد الفتنة والعبث وموطن اللهب والمجون ، اليسر اليه يقصد السراة وكبار الاغنياء والمترفين من سادات الريف اذا اجتمعت لهم المقادير الضخمة من الذهب ، فلا يكادون يقضون فيه الصيف حتى يعودوا وقد صفرت أيديهم من كل شيء ، وهم يقصون من أنبائه وأحاديث العبث والفسوق فيه ما تشيب له الاطفال ، وترتاع له نفوس الرجال . لقد كنت أقدر هذا كله حين كنت تجادلني في زيارة الريف قبل أن أبرح الارض ، ولكنك لازلت تلج على وتذكرني وتثير في نفسي العواطف والذكريات ، حتى استحييت منك ومن أبوي ومن الناس ومن نفسي أيضا ، ورأيت أنني لا أستطيع أن أفارق مصر ، دون أن أرى

هذين الشيخين . فمن يدري ! لعل أذهب فلا أعود ، ومن يدري !
لعل أعود فلا ألقاهما .

هنسالك رحلت الى الريف ونيتنى لم أفعل ، فلم أكن أظن
أنى سألقى فى هذا الريف ما لقيت فى حزن لاذع وألم ممض ويأس
لا صبر معه ولا احتمال له

لا أصف لك جزع أمى ولا سخط أبى ، فحسبك أن تعلم أن أمى
لا تصيب من الطعام الا ما يقيم الاود ، وهى لا تصيبه الا بعد
الحاج متصل . وانها لا تذوق النوم الا غرارا وانها لا تمسك
الدموع ، وانما ترسلها ارسالا حتى تنقطع ، وانها تعتقد
اعتقاد يقين أنها قد فقدت ابنها الذى كانت تحبه
وتؤثره وتدخره للحوادث والنائبات وهى تمقت الجامعة وأيام
الجامعة والذين فكروا فى الجامعة وهى تمقت العلم والذين يحبون
العلم ويدعون اليه ، وهى تلعن المدارس وهذا التمدن الذى علم
مصر فتح المدارس . وهى تأسف أشد الاسف وتندم اقصى الندم
كلما ذكرت ذلك اليوم الذى اراد فيه أبى ان يقلد اباك ، فاخرجنى
من الكتاب كما أخرج ابوك من اخرج من اخوتك ، وارسلنى معهم
الى المدرسة الابتدائية فى عاصمة الاقليم ، هناك حيث طرحت زى
الريف واتخذت هذا الزى الاوربى ووضعت على رأسى هذا الغطاء
البفيض .

ولست أخفى عليك أنها تنال أسرتك بكثير من لاذع القول ،
فهى التى ألقت فى روعنا ان من الخير ان يتعلم الاطفال فى هذه
المدارس ، وان يلبسوا الطربوش . وأن يلوا ألسنتهم بالوطانة
الاجنبية ، وان يصبحوا موظفين . وهى لا تفهم كيف استطعنا ان
نعدل بما تعودت أسرتنا منذ الزمن البعيد من الاختلاف الى
الكتاب حتى نحفظ القرآن ، ونحسن القراءة والكتابة ، ومن
الاختلاف الى الازهر حتى نحصل شيئا من علوم الدين
ثم نعود الى القرية حيث الجد والعمل ، وحيث الفنى والشروة ،
وحيث الجاه وبعد الصيت .

لا أطيل عليك فأمي نائرة اذا أصبحت ، نائرة اذا اضحت ،
نائرة اذا أقبل المساء ، نائرة اذا جنها الليل ، نائرة حتى امتلأ
البيت حزنا وسخطا وبكاء . فأما أبى فمتنكر متممر ، ينذر فيلح
في النذير ، ويتلطف فيلح في التلطف ، فاذا أعياه النذير ولم
يسعده الاستعطاف خرج عن طوره فأسخط من حوله جميعا
وجعل حياتهم لا تطاق ، واقسم جهد ايمانه ليقطعن ما بينه وبينى
من سبب وليعيش منذ الآن كأنى لم أكن له ابنا . ولو أنى استمعت
لنفسى أيها الصديق لما اقممت في هذا الجحيم الا يوما أو يومين ،
ولاسرعت الى القاهرة فانتظرت فيها معك ومع أصدقائنا هذا
اليوم السعيد الذى تقلع فيه السفينة بنا الى هذا العالم
الجديد الذى ملك على نفسى كلها وقلبى كله .

ولكنى كيف أستطيع أن أدع هذين الشيخين فيما هما فيه ،
ولما ابدل ما أقدر عليه من الجهد لاهون عليهما الامر بعض الشيء ،
ولاردهما الى بعض الطمأنينة ولارحل عنهما وهما راضيان غيرة
ساخطين . وانى لاجد فى ذلك ما وسعنى الجد ، واحتال لذلك
ما واتتنى الحيلة ، واستعين على ذلك ببعض من له حظ من فهم ،
ونصيب من ذكاء وعلم بحياتنا وما تقتضيه من تطور ، وبما بين
حياتنا فى هذا العصر وحياسة آبائنا قبل ان نولد أو حين كنا
أطفالا ، وما اظن انى سأبلغ وحدى أو بمعونته هؤلاء الناس
شيئا ، فأمى مستيقنة بأنى اذا سافرت فقد فقدتنى ، وأبى
مقتنع بأنى ان سافرت فقد قطعت بينه وبينى كل سبب .

فى ذات يوم أصبحت ضيق الصدر كئيب النفس ، شديد
الخرج ، ممتلئا بهذا العجز الموثس من رضاء هذين الشيخين ، كارها
أشد الكره للدار والقريبة ومن فيهما ، فخرجت أهيم فى الريف
التمس راحة النفس فى تعب الجسم ، ولست أزعم انى خرجت
أريد وجهة بعينها ، أو اسمى الى غاية معروفة ، وانما هو المشى
والابعاد فيه ، والخلوة الى النفس ، والفرار من لوم اللائمين ، وعذل
الهاذلين . والحاج الملحين . وانى لامضى أمامى لا احفل بشيء ولا

أقف عند شيء ، وأكبر الظن ان كثيرا من الناس الذين أعرفهم والذين لا أعرفهم قد تقونى فحيونى ، وما اشك فى أنهم قد انكرونى لانى لم اسمع منهم ، ولم أرد عليهم تحيتهم ، ولعل كثيرا منهم قد تحدث الى نفسه بأن هذا أول الشر ، وبأدرة الفساد ، انه ليعرض عنا ، ويكبر علينا ، ولم يذهب الى بلاد الفرنج بعد ، فكيف به اذا ذهب اليها وعاد منها . .

والله يشهد ما ريتهم ولا سمعتهم ولا احسست مكانهم منى ، انما كنت مشغولا بنفسى عنهم وعن كل شيء . وانك لتعلم انى كثيرا ما حدثتك عن كلفى بالخروج الى الريف . والتروض فى الحقول أثناء هذا الفصل من العام ، حين يكون الحصاد ، وحين يشتد النشاط ، وحين تنتشر فى ريفنا هؤلاء الفتيات الفقيرات الحسان مبتذلات بحكم الفقر يطوفن بالحقول ويلتمسن أقواتهن فى التقاط ما يسقط من الحب . انك لتعلم كلفى بالخروج فى هذا الفصل ، وانى أجلدة حارة حادة فى الاستمتاع بهذا الجمال الطبيعى الذى تسبغه الحياة العاملة الجادة على أهل الريف حين يخرجون من أطوار الجمود والجمود . ويفنون فى طبيعتهم هذه ، ويصبحون وكأنهم أدوات للعمل والانتاج ، لهم جد الاداة وصدقها واستقامتها وصبرها واعراضها عن الشكوى ، وبعدها عن الملل والسأم . فما رأيك فى ان هذا الجمال الذى يفتنى ويملك على قلبى ويحملنى على الرحلة الى الريف اذا كان هذا الفصل من كل عام ، لم يصل الى قلبى ، ولم ينته الى نفسى فى هذا اليوم . فلم أقف عند الاجران ولم اتحدث الى المصيفات ولم ادعب فتى ولا فتاة من هؤلاء الشباب الذين يملؤهم العمل نشاطا ومرحا ويقينا وثقة وإيمانا انما مضيت امامى لا لوى على شيء كأنما تدفعنى قوة خفية الى غاية خفية لم اتبينها ولم اتنبه لها ، الا فجأة حين رأيتنى واقفا جامدا . وحين أنكرت من نفسى هذا الوقوف وهذا الجمود ونظرت من حولى كأنى أفقت من نوم عميق ، فما يروعنى الا ان ارانى واقفا استظل بشجرات التوت عند الابراهيمية . هنالك حيث مدخل المدينة لمن قبل عليها من الغرب .

تبارك الله فلم أكن اذا قد خرجت من دارنا ضيقا بها وبمن فيها ، ولم أكن اذا قد خرجت من قريتنا فرارا منها ومن أهلها ، ولم أكن اذا قد همت في الريف التماسا للخلوة الى نفسى والراحة مما كنت أظن من عناء ، وانما خرجت من الدار وخرجت من القرية ومضيت في الريف أمامى لانى لم أكن أجدها بدا من أن أزور هذه المدينة التى انفتحت فيها أحسن أيام الصبى ، ومن أن ألم بهذه الربوع التى ذقت فيها أطيب ما ذقت في الحياة من لذة قوية طاهرة بريئة من كل اثم .

اذا فلتعد الى نفسى النافرة ، وليشب الى قلبى الجسامح ، وليراجعنى هذا العقل المضطرب المشرد لاستجمع كل ما استطيع ان أستجمعه من قوة الحس والعقل والشعور ، لاستمتع بالحياة القوية الخصبة في هذه المدينة الحبيبة الى نفسى ، الكريمة على قلبى ، ولأخذ منها بأعظم حظ ممكن من المتاع ، أجعله زادا لى في هذه الرحلة البعيدة التى أنا مقبل عليها ، واجعله ذخرا لى في هذه الإقامة الطويلة التى سأقيمها في ذلك البلد القريب .

لاملا اذا عيني مما سارى . ولا ملاء اذا أذنى مما سأسمع ولا ملاء اذا نفسى وقلبى مما سأجد ، وانى لأنظر فلا أكاد أرى الا الابراهيمية تمتد أمامى ويسعى فيها الماء هادئا حلو السعى . والا هؤلاء الناس يسهون متفرقين ، منهم المقبل من الغرب يحمل الى المدينة ما يبعث اليها الريف من العروض ومنهم الذاهب الى الغرب يحمل الى الريف ما تذيع المدينة فيه من التجارة . بعضهم راجل ، وبعضهم راكب . وقليل منهم يتحدث الى رفيق وكثير منهم يفسق في الصمت كأنما يفكر فيما وراءه او فيما أمامه . وقليل منهم يتفنى كأنه يستعين بالغناء أو يعين به دابته على احتمال السفر البعيد ، وامرأة او فتاة تأتى من حين الى حين ، فتغمس جرتها في الماء حتى اذا امتلأت رفعتها الى رأسها ونهضت تسعى ها رشيقة رائعة الجمال غامضة في هذا الصمت

الذى يحجب نفوس النساء ، ويستر ما يجول فيها من خواطر
يود الرجل لو يعرف منها بعض الشيء . وانى لامد سمعى فلا
اسمع الا هذه الاصوات المختلفة التى تأتىنى من هذه الحركات
كلها ، وهذا اللحن الحلو المتصل المتشابه الذى تأتىنى من هذه
الاطيار وقد استتقرت على الفصون . وكأنها وجدت لذة
الراحة واحست رقة النسيم واستمتعت بخفض العيش بين
هذه الاوراق النظرة . فهى تتغنى بالجمال واللذة والامل وحب
الحياة . وانى لامد نفسى كلها فلا أحس الا حياة هادئة قوية نقية
تأتىنى من كل وجه ، من الحركات التى أرى ، ومن الاصوات التى
اسمع ، ومن هذا النسيم الخفيف الذى يمسنى مساً رقيقاً فيرد
الى النشاط ويحيى فى نفسى الامل ، ويلقى عنى كل ثقل ويكاد
يهبى جناحين ويسكاد يجعلنى طائراً بين هذه الطير . ويكاد
يرسل صوتى كما ارسل صوتها بالغناء ، وانا اقيم هنا فى ظل
شجرات التوت ساعة أنعم فيها بالراحة واستمتع فيها بالحياة
واذكرك ايها الصديق . ثم اتهم بالتمضى أمامى ولانقض على المدينة
من هذا المنحدر ، فرحاً مرحاً شيطاً طروباً ، كما ينقض النسر ،
وهأنذا أمضى واقدر ما سألقى من المناظر وأريد أن أبلغ أول القناة ،
قناتنا أتذكرها ؟ اريد ان ابلغ اولها وان اتبع مجراها أسايره
على الشاطئ الجنوبى حتى اذا بلغت ذلك المنحدر الذى تعرفه ،
ودعتها لحظة وانحدرت الى المدينة لامر بهذه الاماكن التى
كنا نألفها ، بالدكان وبيت ثم محمود وبيت زنوبة . ثم أمضى
حتى ابلغ شارعكم ولعلنى أقف لحظة عندأوله فاتحدث الى بمبة .
أتذكر بمبة ؟ تلك التى كانت تسرف فى النوم وتسرف فى
الغطيط ويسمع الناس غصيطهاى اكثر ساعات النهار ، وفى كل
ساعات الليل ، اذا مروا امام بيتها الصغير . من يدري ! لعلنى كنت
اقف لحظة عند هذا البيت فأعبت بصاحبه وأسألها عن اصناف
الجبن الذى تبيعه وجه النهار ثم ألهم لحظة بابنها الابله ذى الرأس
الغريب : أتذكره ؟ لقد كنا نسميه ابا الرؤوس ، انه لا يتكلم ولا

يسمع ، ولا يكاد يعقل ، من يدري لعل كنت ألهو به لحظة ثم ألقى في يده أو يد أمه بعض النقد .

ثم أمضى في شارعكم نحو الشمال فأمر بهذه البيوت التي كثيرا ما نعمت فيها بالجد والهزل ، واقف عند بيتكم في هذا المنعطف الصغير أمام الباب حيث تتدلى أغصان هذه العنبات التي كثيرا ما لعبنا في ظلها واكلنا من ثمرها واتخذنا بينها الحدائق والحقول . ومن يدري ! لعلني أجلس على هذه المصطبة الصغيرة عن يمين الباب إذا خرجت من البيت وأذكرك أو أذكر اخوتك ، فكثيرا ما جلسنا عليها وكثيرا ما لعبنا الطاب . ومن يدري ! لعل الذكرى أن تملأ نفسي وقلبي ، وإن تنسيني نفسها وإن تخيل إلى أنها حاضرة لم تمض ولم تنقض أيامها ، ولعلني اعتقد اني قد أقبلت لازورك ، ولعلني أطرق الباب وانتظر ان اسمع من ورائه صوتا معروفا مألوفاً يسأل عن الطارق وأنتظر أن يفتح وأن أرى من دونه شخصا معروفا مألوفاً يرحب بي ويدعوني إلى الدخول . . ثم انظر فأرى شخصا لم أعرفه ولم ألقه يسألني من أنا وماذا أريد ، فأثوب إلى نفسي واستأنف رحلتي وقد مثلت فصلا من حيساني الأولى ووجدت في التمثيل مثل ما كنت أجد من اللذة حين كانت الحياة حقيقة واقعة .

ثم استأنف رحلتي فأمضى أمامي نحو الشمال حتى أبلغ هذا المنحدر الذي كنا ننحدر منه بعد أن كنا نقضي ساعات على شاطئ القناة أو في حديقة جرجس أفندي عن شمالنا ، أو في حديقة المعلم من يميننا . فأرقي في هذا المنحدر حتى ألقى القناة فأتابع شاطئها في طريقى إلى المدينة .

وكنتم أقدر هذا كله وأقدم لنفسي المتاع بهذا كله وأنا أمضى أمامي ملتصقا مخرج القناة من الابراهيمية . ولكن ماذا أرى؟ وابن أنا؟ وابن القناة؟ انى لأنظر فإذا الابراهيمية تمتد وتمتد ويجرى فيها الماء هادئا يحمل الحياة والخصب ، ولكن شاطئها من ناحية المدينة قد اعتدل واستقام ، فليس فيسه عوج

وليست فيه فرجة يخرج منها الماء . اين القناة ؟ لقد كانت
نخرج من نحو هذا المكان وكانت تمضى غير بعيد ثم يقام عليها جسر
صغير تمر عليه بعض القطارات . ثم تمضى غير بعيد ونمضى معها
فنبلغ هذا المنحدر الذى كان ينتهى بنا الى المدينة . أين
القناة ؟ انى لا أراها ولا أجد لها أثرا ، وانما ارى شوارع وارى
دورا تقوم فى هذه الشوارع ، وأرى معالم لم آلفها ، ومناظر
لم ارها من قبل . أترانى أخطأت المدينة ؟ ومع ذلك فأنا اعرفها
كما اعرف نفسى ، واستطيع ان أمشى فيها واهتدى الى مسالكها
المختلفة دون ان افتح عينى كما كنت تمشى فيها انت ايها الصديق
لا تحتاج الى أن ترى ولا الى من يهديك الطريق . اين القناة ؟ لقد
سلكت الى المدينة الطريق التى سلكتها ألف مرة ومرة ، فلست
اشك فى أنى قد بلغتها وبلغتها هى دون غيرها من المدن ، فماذا
اصابها بعدنا ، وأين ذهبَت القناة ؟ انى لا أريد أن أسأل فأجد حياء
فى نفسى من السؤال ، ولكنى اطيل الوقوف واطيل النظر عن
يمين وشمال ، واطيل النظر من امام ومن وراء حتى يخيل الى
والى من كان يرانى من الناس أنى ابله قد فقدت الصواب . ثم
لا أملك نفسى ، واذا أنا أسأل عن المدينة وعن القناة واذا أنا اسمع
ويا شر ما اسمع . انى قد بلغت المدينة وان القناة قد ماتت منذ
زمن بعيد وان معالم المدينة قد تغيرت منذ هدم معمل السكر ،
ماذا اسمع ! معمل السكر قد هدم ، وماذا بقى اذا فى المدينة
او ماذا جئت ارى فى المدينة ! ماتت القناة ، وهدم معمل
السكر ! وغيرت المعالم ، وانتقل اكثر من كنا نعرف فى المدينة
من الناس .

يا للحزن والاسى ، يا للوعة والحسرة ، يا لليأس والقنوط .
أبلغ العنف بالزمان ان يحو هذا المقدار الضخم من حياة
الناس فى أعوام قصار . لقد جد جيل وجيل فى اقامة معمل السكر
واقامة ما حوله من الدور ، بل من القرى . لقد عاش
وجيل ، بهذا المعمل ولهذا المعمل . لقد عاش جيل

بهذه القناة ومن هذه القناة ، فكل هذا الجهد ، وكل هذا المناء
وكل هذه الذكرى ، وكل ما كان على شاطئ القناة وحول معمل
السكر من جد وهزل ومن لذة وألم ، ومن حب وبغض ، ومن
أمل ويأس ، ومن مكر ونصح ، ومن خداع وإخلاص ، كل هذا
يذهب في أعوام قصار لا تكاد تبلغ عدد أصابع اليد الواحدة ،
كان شيئاً من هذا لم يكن ، وكان نفساً لم تتأثر بما أثارته الحياة
فى هذه الأرض من العواطف وكان شفة لم تبتسم لما أنبتته
هذه الأرض من مناظر الجمال وكان عيناً لم تبك لما شهدته
هذه الأرض من أسباب الحزن والأسى . يا للحزن اللاذع ، يا
للالم الممض ، ويا لليأس المهلك للنفوس ! لقد ماتت قناتنا أيها
الصديق ، ماتت ودفن فيها أو صرف عنها ذلك الإله الشاب من
آلهة الأساطير الذى كان ينطلق فيها فرحاً مرحاً هادئاً وأدعاً
مستبشراً يرسل البشر من حوله جميلاً يثير الجمال على جانبيه .
مات هذا الإله الشاب فدفن فى مجراه أو طرد هذا الإله الشاب
ورد عن مجراه ونسى فى الإبراهيمية . فأصبح ماء من
الماء وجرى لا يتميز من غيره ، لا يعرفه أحد ولا يعرف هو
أحداً ، لا يشير فى نفوس الناس حزناً ولا فرحاً ولا يجرى السنتهم
بالحديث ، نسيه الناس ، ونسى هو الناس ، بل نسى نفسه
أيضاً . انك لتعرف ان آلهة الأساطير لا حياة لهم الا اذا
أقيمت لهم المعابد وأقاموا هم فى المعابد ، فاذا هدمت معابدهم
فقد ماتوا أو طردوا من الأرض طرداً ، فقد هدم معبد هذا الإله
الشاب ، وماتت الفتاة فمات هو أو نفى من الأرض وأصبح حديثاً
كغيره من الآلهة الذين أصبحوا أحاديث . أتدرى أين اكتب اليك
انى اكتب اليك فى مكان لم يتغير لان الحضارة لم تدع الى تغييره ،
ولم يتبدل لان المنفعة لم تأمر بتبديله ، ولأن يد الانسان لا تكاد
تجراً على ان تمتد اليه ، انى اكتب اليك عند المسجد ، عند باب
البحرى ، اذكر هذا الباب هو الذى يدخل منه المترفون الذين
لا يحتاجون الى أن يمشوا بالموضة لانهم يتوضأون فى
بيوتهم ولا أن يمشوا بالمفطس لانهم يستحمون فى بيوتهم ،

اتذكر هذا الباب ؟ انه ينتهى بك الى قلب المسجد لا الى فناءه ولا الى الصحن المنبسط امامه . انك اذا دخلت منه لم تكد تخطو خطوات حتى تجد عن يمينك قبر ذلك الفنى الذى بناه . اتذكر هذا الباب ؟ انك اذا اقبلت عليه وجدت مقعدين من الحجر يكتنفانه عن يمين وشمال ، فانا اكتب اليك عند هذا الباب واكتب اليك قائما لا قاعدا . واكتب اليك وقد وضعت القرطاس على أحد هذين المقعدين المرتفعين وقمت أمامه أجرى يدي بما تلقى هذه النفس الحزينة على هذا القلم الشقى .

لقد أطلت ولكنى لم أحدثك إلا بأيسر الحديث ، لقد أطلت ولكنى لم أحدثك عما رأيت ، بل لم أحدثك عما لم أر فان ما رأيته لا يستحق الحديث ، وانما الذى يستحق الحديث هو هذه المعالم التى أقبلت زائرا لها . فلم أر منها عينا ولا أثرا ، وسألت عن بعضها فلم أجد بين الناس الذين سألتهم من يعرف لها نبأ أو يروي عنها خبرا . هذه المعالم التى جئت لراها والتى لم أرها ، هى التى تستحق الحديث . لن أرسل اليك هذا الكتاب حتى أتمه . ولن أتمه الآن . فقد آن لى أن أروح الى قريتنا حيث ينتظرني الحزن والسخط والبؤس والشقاء .

نعم لن أرسل اليك هذا الكتاب حتى أتمه ، فما ينبغى أن أحتمل وحدي ثقل هذا الحزن وما أظن أن غيرك وغيرى من الذين نشأوا فى المدينة يحزنهم أن يعلموا بموت القناة أو بتغير ما ألفوا من المعالم أو بتفرق من ألفوا من الناس .

واكتب اليك الآن من قريتنا وقد بلغت مع الليل فألهانى ما شهدت فيها بعض الوقت عما كان يملأ نفسى من الحزن والحسرة ، ولو أنك رأيت للهوت كما للهوت ، ولما استطعت أن تمنع نفسك من ضحك ينفذ اليه حزن غير قليل . فقد رأيت أهل الدار وقد ملكهم جزع غريب لم يحكموا فيه عقلا ولا روية وانما اندفعوا فيه اندفاعا افتقدوني وجه النهار فلم يجدوني وانتظروني حتى انتصف النهار ، وهم يظنون أنني قد خرجت لبعض ما يخرج له الشباب من النزهة

والتماس التبرؤض والعبت فى الحقول • ولكنى لم أعدم الظهر ، ولم أعدم مع العصر ، فلم يشك أحد فى انى لم أخرج لنزهة ولا لتبرؤض وانما فررت منهم فرارا، وعدت الى القاهرة أنتظر فيها يوم الرحيل

وتستطيع أن تصور لنفسك ما ملأ نفس الشيخين من هذا الحزن العنيف الذى يملؤه السخط والغضب • وتملؤه الرقة والرحمة فى وقت واحد • لقد كنت ابناعاقا يرتحل دون أن يودع أبويه، فكنت خليقا أن أثير السخط والغضب والموجدة ، ولكنى كنت ابنا يرتحل الى بلد نازح ، فكنت أثير الرحمة والحب والحنان ، وكانت غريبة هذه الدموع التى كانت تنحدر من عيني أمى ، لا يعرف الناس أهى دموع الغيظ والحنق أم هى دموع الوجد والحزن • وكانت غريبة هذه الالفاظ التى كانت تنطلق متصلة على لسان أبى ، لا يعرف الناس أصدرت عن أب ينكر على ابنه عقوقه وجحوده وقسوة قلبه الغليظ أم صدرت عن أب ينفطر قلبه حزنا لان ابنه قد سافر الى بلد مجهول ، وهو لا يعرف متى يعود ولا كيف يعود •

ثم كانت غريبة هذه العواطف التى ثارت فى نفسى حين بلغت الدار فرأيت الشيخين راضيعين يظهران السخط ومسورين يتكلفان الحزن ، ومبتهجين يتصنعان الاكتئاب • ففى قلبيهما اذا عطف على • وهذا الغضب الذى أراه وأتأذى له ليس الا مظهرا من مظاهر هذا العطف ، ولونا من ألوان هذا الحب ، وصورة من صور هذا الحنان ، واذا فسأسافر الى هذا البلد الغريب وأنا واثق بأن الذى سيصحبنى فى هذا السفر هو الحب والعطف والحنان لا السخط والغضب والموجدة • ولعل خروجى الى المدينة لم يكن شرا كله وانما كان فيه بعض الخير ، على كثرة ما أثار فى نفسى من الآلام الملحة الباقية ، فاول مرة عدت الى القرية استطعت أن أظفر من أبوى بساعات فيها هدوء وطمانينة وحديث متصل مختلف ، كأن عودتى اليهما من الرحلة القصيرة

التي انقضت قد ألتهما عن تلك الرحلة الطويلة التي لم تبتدىء بعد . وكان أكثر حديثنا عن المدينة التي زرتها ، وعمّا تغير من معالمها ومن تفرق من أهلها . وكان الشيخان يتحدثان الى في ذلك كله حديثا هادئا مطمئنا يغشاه حزن خفيف وتتردد فيه ذكريات مؤثرة ، ولكن قوامه الرضى بما كان والسخط على ما هو كائن والامل فيما سيكون . وكانت أحاديثهما متممة لما رأيت وما علمت ، ومتممة في الوقت نفسه لتشديد هذا المعبد الحزين الذي أقمته في نفسى لهذه الحياة المنقضية ولهذه العهود الماضية ولهذه الذكريات التي ستبقى ما بقيت .

نعم كانت أحاديثهما متممة لتشديد هذا المعبد الحزين الذي أقمته في نفسى والذي يجب أن تقيم مثله في نفسك لذلك العهد الذي مضى الى غير رجعة ومات الى غير نشور . ولا بد من أن أتم لك ماتم في نفسى من تشييد هذا البناء المظلم الحزين الذي ستتردد فيه الذكريات حائرة مضطربة كما تتردد هذه الطير التي تألف الظلمة في البيت المظلم الحزين .

وماذا تريد أن أقص عليك من أمر المدينة ؟ لم يبق فيها شيء مما كنت تعرفه وتألفه ، ماتت القناة فمات من حولها كل شيء . فأما حديقة المعلم فتستطيع أن تلتمسها في نفسك واجتهد ان استطعت أن تستحضر ما بقى من صورتها وأن تشبته ، فاني أخشى أن يعبت الزمان بالصورة كما عبت بالاصل . وأما بيتكم فلن تراه الا في الخيال يقظان أو في الحلم نائما . وكذلك هذه البيوت الحسان التي كانت تقوم على شاطئ القناة والتي كنت تحب أن تدخل بعضها لتتحدث الى محمود وعثمان ، ولتسمع لعزيزة وأمينة . وقد مضى أهلها الى أقصى الصعيد ، وهبط أهل عزيزة وأمينة الى القاهرة . فتستطيع أن تلقاهم ان شئت فقد كنا نسمع أنهم كانوا يقيمون في بولاق قبل أن ينقلهم العمل الى مدينتنا .

وأنت تعلم من غير شك أن عم حسنين قد انتقل الى السودان بعد أن عصف الموت ببيته فأذوى منه غصونا وأذبل زهرات .

ولكنك تجهل أن «حسن كوزو» قد رحل الى عزبة «المكسرين» وأنت لا تعرف عزبة «المكسرين» فهي قطعة من الارض منحبتها الحكومة لعمال الدائرة السنوية الذين عجزوا عن العمل . فهم يقضون فيها ما بقى لهم من حياة

فأما سيدنا فقد ارتحل الى حيث لا يؤوب المرتحلون وسبقته حماته الشمطاء ذات اللسان الحاد الذي لم يكن يعرف السكون . واستأنفت زوجه الشابة حياتها سعيدة مع ذلك الذي كان يدور حول بيتها كما كان يدور الاحوص حول بيت أم جعفر . وفقدت عالية أم غريب زوجها الضرب ثم انتقلت مع أبنائها الى حيث لا يعلم أحد . وطارت أم محمود مع غوى من أهل المدينة، ذهب بها الى حيث لا ينكر الناس عليه غوايته . ولقيت زنوبة من ههنا سرا ونكرا . فخانها زوجها جهرة بعد أن كان يخونها سرا، وآثر عليها بنت أخيها الفتاة . ثم مضى الدهر فى تنكره لها ومكره بها ففقدت بصرها، وعاشت أعواما لا ترى النور ، ثم رأفت بها الايام فأخرجتها من هذا العالم الذى لا يكمل الصفو فيه . أتريد أن تعلم أكثر مما علمت وأن تحزن أكثر مما حزنت ؟ فقد هدم الكتاب هدمًا ، وذهب ما كان حوله من الاشياء ومن كان حوله هن الناس .

نعم هدم الكتاب هدمًا ، وما أعرف أن شيئًا مما رأيت أو شيئًا مما لم أر ، ترك فى نفسى من الآثار المؤلمة والندوب التى ستبقى هابقيت مثل ما تركه فيها منظر الكتاب المتهدم . فما تزال معالم الكتاب باقية ، على نحو ما كانت تبقى معالم الديار لقدماء الشعراء . فالكتاب الان طلل تمحوه الايام شيئًا فشيئًا وتبقى من آثاره الى الان بقية مؤذية حقا . لقد ماتت القناة عن شماله وسويت الطريق هن يمينه ، ونزع منها ذلك الخط الحديدى الضئيل الذى كانت تمضى عليه تلك القطارات الزراعية الصغيرة تحمل القصب الى معمل السكر أثناء العمل وتحمل الثراب والحصى اذا كان الفيضان لردم هذا المستنقع العظيم الذى كان يؤذى المدينة فى كل عام .

نزع هذا الحظ وسويت هذه الطريق وقلت الحركة عن تين انكتاب
وشماله . وعملت معاول الهدم في الكتاب نفسه وفيما كان
يجاوره ويوازيه من البناء حول دار المأمور . فالمنظرة التي كانت
امام الكتاب والتي كان ينزل فيها اضياف المأمور قد هدمت كما
هدم الكتاب ، واصبحت طلامثله . والبیت الذي كان يقوم
وراء الكتاب وتعيش فيه أسرة عم نوح قد هدم كما هدم الكتاب
وانتشرت هذه الاطلال في هذا الفضاء انتشارا محزنا مؤلما ،
ولكن مكان الكتاب بينها يثير في النفوس أسى غريبا ولوعة محرقة
حقا . ان ارضه مازالت مرصوفة بهذه الاحجار التي كان يفلسها
التلاميذ مساء الاربعاء من كل اسبوع بعد ان يقرءوا الحزب ،
وان عتبته مازالت قائمة ولم تمح جدرانها كلها محوا ، وانما بقي
منها شيء يرتفع هنا وينخفض هناك ، وتستطيع ان تبين
مواضع المقاعد الخشبية التي كانت مسندة الى هذه الجدران
والتي كان يجلس سيدنا على احدها عن يمينك اذا دخلت
ويجلس العريف على احدها الآخر عن شمالك اذا دخلت ،
ويجلس المترفون من التلاميذ على سائرها ثم يختلط بينهم
الفقراء وابناء الشعب ، على حصر ممزقة تستر بعض الارض
وتبين عن بعضها الآخر ، ولا تكاد تجدد الا حين تستحيل الى
قش لا يكاد يتصل ، وحين يجود بعض الاغنياء بما يقوم مقامها
قل هاشتت واعجب بالشعر ما احببت واحفظ من وقوف
الشعراء على الاطلال وبكائهم على الديار وذكرهم للظاعنين
ما استطعت ان تحفظ ، فسيظل هذا كله في نفسك كلاما اجوف
لا يحتوى شيئا ولا يدل على شيء ، حتى تقف موقفا كالذي
وقفته منذ حين بين هذه الاطلال عن يمين وشمال ، وحتى تذكر
ما ذكرت من هذه الحياة القوية الغنية الخصبة التي كانت
تملؤها الحركة والنشاط ، وتضطرب فيها الاماني والآمال ،
وتختصر جيلا مضى وتنهى عن جيل مقبل ، فذهبت هباء
وتفرقت في الارض ، ولم يسبق منها في هذا المكان الا صدى

لا يحسسه الناس جميعا ، ولا يقدرّون وجوده ، وانما يحسسه
 مثلك ومثلى من الذين اشتركوا في هذه الحياة وتأثروا بها
 وملأوا من صورها النفوس والقلوب . لقد وقفت على الكتاب
 وقفة طويلة وجعلت انظر حولى فلا أرى الا هذه الاحجار المتناثرة
 وأمد أذنى فلا اسمع الا هذا الصدى الذى كان يضطرب
 فى الفضاء ، ولكنى مع ذلك كنت أرى رفاقنا جميعا ، وقد أخذوا
 مجالسهم فى الكتاب ، هذا يقرأ ، وهذا يسمع ، وهذا يلغو ، وهذا
 يكتب ، وهذا يلعب ، وكنت أحلّل هذا الصدى المتردد فأجد
 فيه هذا اللفظ الذى كان يسمع من مكان بعيد فيدل سامعه على
 مكان الكتاب ، ولولا انى مازلت محتفظا ببقية ارادة ، وفضل
 من القدرة على ضبط النفس لجننت ولتحدثت الى هؤلاء
 الاشخاص الذين كنت اراهم يجرون ويلعبون ، ولشازكتهم
 فى الجسرى واللعب . لا اخفى عليك انى ملكت نفسى فلم يذهب
 بها الجنون ، ولكنى لم املك عيني ، ففاضت منهما الدموع .
 هممت ان امضى ولكنى لم اسلك الطريق العامة حيث كان يمتد
 الخط الحديدى ، وانما هممت ان امضى نحو بيت المأمور ، فما
 راعنى الا النخلتان اللتان كانتا تقومان بين الكتاب وبيت نوح ،
 واذا هما قائمتان كعهدهما بتسطان ما كانتا تبسطانه من
 الظل ، وتحملان ما تعودنا حمله من التمر الذى لم يتم نضجه
 بعد ، وتلقيان ما كانتا تلقيان من بعض هذا التمر الذى كنا نلتقطه
 فنعبث به ، ثم كنا نلتقطه فناكله اذا قارب النضج ، ثم كنا
 نتردحم عليه ونتنافس فيه اذا تم نضجه ، وما زالت النخلتان
 قائمتين بين هذه الاطلال المتهدمة ولكنهما قد فقدتا ما كانتا تبعثان
 من بهجة ، وظهرت عليهما كآبة عميقة حزينة مثيرة لليأس كأنهما
 تجدان الوحشة فى هذا المكان الذى خلا بعد عمران ، ومات
 بعد حياة

لقد وقفت عند هاتين النخلتين لحظة ما أعرف أنى قضيت مثلها ،
 ولقد ذقت فى هذه اللحظة من لذة الذكرى والم الحسرة مالا أعرف

انى ذقت مثله قط . وانى لاذكر الآن هاتين النخلتين فأمنحهما حبا ومودة وأهزأ بهذا الامتحان الذى اخضعكم له ذات يوم استاذ من اساتذتكم فى الجامعة حين ذكر حلوان ثم استطرد الى نخلتى حنوان ثم كلفكم أن تبحثوا عن هاتين النخلتين أين كانتا وماذا قيل فيهما من الشعر ومن ذا تغنى بهما من الشعراء ! . لقد اجهدت نفسك فى البحث . ولقد كنت تعجب بشعر مطيع فى هاتين النخلتين ، ولقد كتبت كلاما كثيرا عما عرفت من أمر هاتين النخلتين ولقد كنت راضيا عن نفسك لان الاستاذ كان راضيا عنك ، ولكن ماذا تركت نخلتا مطيع فى نفسك من اثر ، وماذا بعثتا فى قلبك من عاطفة ؟ انما هو كلام يروى ثم يثير فى أنفسكم العجب والتيه والغرور أكثر مما يثير فيها الشعور الصادق بالجمال الصادق . أسرع ايها الصديق الى مدينتنا فالزم بها يوما أو بعض يوم قبل أن تمحى معالم الكتاب محوا ، وقبل أن تجث النخلتان اجتثاتا ، وقبل أن تتم الحضارة عماراتها الشاهقة على هذه القبور العزيزة التى دفنا فيها الصبى . وما كان يملؤه من الفرح والمرح ومن الحياة والنشاط . أسرع الى النخلتين فأجلس اليهما واستظل بظلهما ثم أنشد شعر مطيع ، فستفهمه وستتذوقه وستشعر بما يصور من الحزن كما شعر به مطيع نفسه .

ليت الايام تتيح لى ان احقق أمنية تضطرب فى نفسى فأجمع نفرا من رفاقنا ونقصد الى الكتاب والى ماحوله من الاطلاع والى النخلتين فننظر ونسمع ونجلس ونتحدث ونحى عهدنا القديم ساعة أو بعض ساعة .

لست أدري أتقرأ هذا الكتاب الطويل أم تضيق به ، وتشفق من طوله ، وتكره أن تنفق فى قراءته من وقتك ما انت فى حاجة اليه لتستعد لدرس من الدروس ، أو لتقرأ فى كتاب من الكتب ، أو لتحفظ من بعض الدواوين ، ولكنى لم أكن أستسيغ ان اكتب اليك أقصر مما كتبت ، ولولا اشفاقى عليك ورتائى لك لكتبت اليك اطول مما كتبت ، فقد تقدم الليل حتى تجاوز نصفه ، فكل شىء ساكن من حولى الا هذه الاصوات التى تبلغنى من جين الى جين ، أصوات الحفراء

حين يتنادون أو أصوات الديكة ، فتحسب ان الفجر قد لاح ، فتصيح
بندائها العذب لتلقاه بالتحية ولنبىء الناس بمطلعه . ثم تعلم بعد
ذلك أنها قد خدعت ، أو هي لا تعلم شيئاً وإنما يمضى بها النوم
في أمواجه المتصلة المتلاطمة فتعود الى الصمت وتفرق فيه . ولعل
أجرد نفسى من خواطرها ، واسلها مما حولها سلا ، وأعلقها
في هذا السكون تعليقاً ، فأسمع اصداً تتردد ويدعو بعضها بعضاً
ويجيب بعضها بعضاً ، وتصور لى ذلك الصدى الذى كنت أسمع
في الكتاب ثم أريد ان أحل هذه الاصداء واردها الى اصولها ،
واتخذ لها اشخاصاً احياء ، فيخيل الى انها نفوس الاجيال
التي سكنت قريتنا على اتصال الزمن ، ويخيل الى ان اجسام
الناس والحيوان والاشياء هي وحدها التي تزول ، وهي وحدها
التي تتغير ، وهي وحدها التي تروح الارض . فأما نفوس الناس
والحيوان والاشياء فمتصلة بالارض لا ترحها ، مضطربة في
الجو لا تفارقه ولا تزول عنه ، وإنما هي حياة لا يشعر بها الاحياء
الا اذا سلوا انفسهم من المادة سلا ، وعلقوها في سكون الليل
تعليقاً ، لقد تقدم الليل حتى جاوز نصفه وكاد يبلغ ثلثيه ،
ولقد سكن من حولي كل شيء ، وأنا لا اسمع دعوة النوم ولا أحس
مقدمة ، ولا أرغب فيه ، وإنما أنا حريص كل الحرص على أن ابقى
مع هذه الذكريات أتحدث اليها ، وأسمع منها حين اتخذها موضوعاً
لما أحمل هذا الكتاب اليك من حديث وما أظن أن الفجر سيلقاني نائماً
بل أنا واثق من انه سيلقاني يقظان ، ولولا ان يراع اهل الدار وان تظن
بى الظنون لخرجت لاستقباله في القضاء فأنا أكره ان يدخل على
نوره من النافذة ، كأنه اللص ، وأجب ان القاه في القضاء الطلق ،
فأملأ به نفسى وقابى ، والتمس في ضوءه الهادىء الحلو هدوءاً
لهذه الثورة التي لا أستطيع أن أكبح جماحها ، ولا ان أنتهى بها
الى السكون .

يا للحزن ويا للاسى ! يا للوعة ويا للحسرة ، ويا لليأس ويا للحنوط !
لقد أقبلت على الريف وكنت اظن انى سأملاً عينى وأذنى

ونفسي وقلبي بما احببت وبما ألفت ، واني سأحمل هذا كله الى حيث اريد ان اقيم وراء البحر ، فلم أجده شيئا وهأنذا سأعود اليك بعد ايام ، ثم ارحل الى مصر بعد اسابيع لا احملي في نفسي الا أطلاالا متهدمة ، ونخلتين قائمتين صامتين تجدان الوحشة ، وتبعثانها من حولهما ، ما اكثر ما كنت اريد وما اقل ما وجدت وما أكثر ما يعبت بنا من الآمال ، تقبل تحية صديقك اليأس»

وأنا اعترف اني تلقيت هذا الذي هو اشبه بالسفر منه بالرسالة في شيء من الخوف والاشفاق من طوله، ولكني تعودت من صديقي طول الحديث واختلافه وكثرة الافتنان فيه ، فأبقيته يوما كاملا لم أقرأه ، ولم اعرف ما فيه حتى فرغت له اخر النهار فقرأته ، ولكني لم أحس له من الاثر مثل ما أحسست له حين أعدت قراءته في هذه الايام . وكان الامد بين صديقي وبينى كان بعيدا أشد البعد ، فقد كنت اقدر الذكرى وأنس اليها وأحب التحدث عن العهود القديمة ، ولكني لم أكن أكلف بهذه العهود ولا احفل ولا آسى عليها .

ولعلى كنت مدفوعا الى ان أسخر منها سخرى غير قليل ، فقد كنت مفتونا بحياتي في القاهرة راضيا عما كنت أتلقي كل يوم من جديد الامر ، مبتهجا بما كانت تتفتح له نفسي كل ساعة من العلم . وكان هذا النشاط العقلي يهرنى ، ويسحرني ويدفعني الى طور من أطوار الحياة يشبه ان يكون سكرا متصلا . وكان تذكر العهود القديمة يؤذيني لانه يخرجني من هذه الحياة اللذيذة بعض الشيء ، ويردني الى تلك الحياة التي طالما ضقت بها ايام كنت صبيا ناشئا في الريف . فلم أحفل بالقناة ولا بموتها ، ولم أحفل بالخط الحديدي ولا بانتزاعه ، ولم اكثرت للكتاب ولم أعرف للنخلتين خطرا . وما قيمة الكتاب وما قيمة النخلتين ولم يقل احد في الكتاب ولا في النخلتين شعرا ، ولم يتحدث كتاب قديم عن الكتاب ولا عن النخلتين ولا عن القناة

ولا عن الخط الحديدى ، ولا من معمل السكر . والله عز وجل قادر على ان يغفر لى الخطيئة ويعفو لى عن الذنب ، ويتجاوز لى عن السيئة ، فقد لقيت ما أنبأنى به صديقى من موت سيدنا بشىء من الابتسام وهز الكتفين . أما الآن فأرانى مع صديقى متلمسا أصل القناة باحثا عما ألفنا من الاحياء والاشياء . حزينا ملتاغا بل يائسا قانطا ، أما الان فانى أقرأ هذا الكتاب فاسأل نفسى : أين هذا الكتاب والنخلتان ؟ وماذا قام فى ذلك المكان ، الذى قضينا فيه شطرا من حياتنا لعله خير ما اتيح لنا ان نحيا .



اذا لم يكن الا الاسنة مركبا فلا رأى للمضطر الا ركوبهالقى هذا البيت بصوته المليظ ومد قافيته مدا طويلا . وهو يضرب الارض بعصاه ، ويلقى طربوشه على مائدة كانت أمامى ثم جلس لم يبدأنى بتحيةة ، ولم ينتظر أن أردما عليه ، وكأنه اعتقد ان هذا البيت الذى القاه على هذا النحو خير تحية يمكنه أن يهديها الى ، وأن دهشى لمقدمه ، وانتظارى لتفسير هذا البيت ، والابانة عما أراد به ، خير رد عليه . واكبر الظن انه لم يكن يرى التحية والرد عليها الا لونا من تنبيه القادم الى مقدمه وتنبيه المقيم الى أن احدا قد أقبل عليه ، ومادام هو قد بلغ من ذلك ما كان يريد فليس عليه بأس من ان يسند عصاه ويتخفف من طربوشه ويجلس الى المائدة التى كنت اجلس اليها مائتا الجو بضحكه المريض كما تعود ان يفعل كلما اتى شيئا غريبا . ثم يرفع صوته بهذه الجملة التى يمتلىء بها بيتنا الصغير كله « هات الشاي يا غلام » .

ثم يستريح قليلا من الحركة ومن الكلام ثم يستأنف حديثه من حيث انتهى وهو انما انتهى عند انشاد البيت ، فيقول : والاسنة هنا ياسيدى هى هذه الزيارات التى مستنق فيها آخر النهار واول

الليل ، حتى اذا ملأنا آذاننا من لغو الناس وملأنا آذانهم من لغونا . وقلنا ما لانعتقد ، وسمعنا من الناس ما لا يعتقدون ، وشبع بعضنا من الكذب على بعض ، انصرفنا الى خلوتنا تلك فى أعلى الربوة ففرغنا لجدنا الذى خلقنا له ، وأخذنا منه بحظ موفور قبل أن يفرق بيننا الرحيل ، وأظن انك لن تمانعنى فى أن نبدا زيارتنا بشيخك الاديب ، فانى قد أحببته منذ عرفتته ، ولست ادرى ايجبنى ام يبغضنى ، ولكن ذلك لا يعنينى فحسبى انى احبه ، وانى اريد ان أراه وان استمع اليه ، وانى اريد ان يكون ذلك فى هذا المساء ، لانى سأشغل منذ غد بما يصرفنى عن الزيارات . والخير ان توطن نفسك على انك ستخرج معى الآن فلا تعود الى بيتك الا اذا أسفر الصبح ، وغمرت الشمس مدينة القاهرة بضوئها الحار المحرق ، وان لم يرتفع النهار . وما أحب ان تجادبنى فى ذلك او ان تنكره على ، او ان تتعلل بهذه التعللات التى لا تغنى فانى مصمم على أن يتم ما أريد مهما تكن المصاعب ، ومهما ت اخترع من التعللات . ولولا انى نهضت وأتيت حركة الذى يريد أن ينصرف ويترك له الغرفة وما فيها لما انقطع هذا السيل المندفع عن التدفق ، ولما كف هذا الفيث المنصب عن الانهمار . ولكنه رآنى قائما أتحوّل الى باب الغرفة وقد رفعت يدي كأنما اريد ان أضاعهما على أذنى ، فأغرق فى الضحك ، ثم ردتى الى مكانى وهو يقول : « لك ماتريد فسأبلعك ريقك ، فقد يخيل الى انى منذ اقبلت لم أرحك ، ولم أرح نفسى من الكلام ، ولكن لا تلمنى فى هذا ولم غلامك هذا الاسود الصغير ، قلو انه أسرع بالشأى وشغلنى به وبيعض ما يصحبه من الطعام ، لانصرفت اليه بعض الشئ عن هذا الكلام المتصل » .

ثم طُمت متكرها وتعجلت خادى فجاءه بما كان يريد ، واستطعت ان أتحدث اليه ، وان أسمع منه كما يتحدث بعض الناس الى بعض فى هدوء واطمئنان وشئ من الرزانة والتفكير . ولم أشك مع ذلك فى انه كان مضطرب النفس ، شديدا

الاضطراب مدفوع القاب الى ثورة عنيفة لا يعرف منها مخرجاً ولا ينتهى منها الى قرار . فقد أخذت أتعلل عليه وأظهر كراهية الخروج ، ثم اقيم الدليل اثر الدليل على انى ان خرجت فلا بد من أن أسرع الى العودة لانى لا أستطيع السهر فى هذه الليلة . كان كلما سمع منى تعلقة محاسنها محوا ، وكلما سمع منى دليلاً نقضه نقضاً ، حتى اذا أعياه ذلك وضاق بهذا التمتع الطويل نهض كالمغضب وخرج من الغرفة واندفع الى الغرفة التى كان أخى قد خلا فيها الى بعض كتبه ، فدفع بابها دفعا ، ولم يكده يجده أخى حتى أنبأه بأنه سيصحبني فى بعض الزيارات ثم سيقضى معى اكثر الليل او كاله فى حديث طويل ذى بال ، وخيره ضاحكا صاخبا بين أن يكون هذا الحديث الطويل الخطير هنا فى هذه الغرفة امام غرفته او هناك فى بيته البعيد على تلك الربوة مما يلي القلعة . وكان أخى أشد الناس ضيقا بالناس ، واكثرهم نفورا من الزيارة والزائرين ، وأشدهم بغضا لهذا النوع من الحديث الطويل ذى البال ، الذى يظن أصحابه ان له خطرا ، وانما هو وسيلة من وسائل قتل الوقت ، والانصراف عما ينبغى للطالب الجاد من درس وتحصيل . فلم يكديسمع حديث صاحبي حتى أجابه متعجلاً أن أخرجه معك متى شئت وأعدده متى أحببت ، فليست أطلب اليك ولا اليه الا أن تريحاني من لفوكما الذى لاحد له ، فأخى يعلم ، ولعلك تعلم أيضا ، أنى غارق فى الاستعداد لامتحان .

قال ذلك وأعرض عنه الى كتبه فعاد الى جدلان مبتهجا وهو يقول : لم تبق لك حجة وانما انت منذ الآن ملك لى ، فلا بد مما ليس منه بد .

ولم يكن بد من أن اذعن له ، وأنزل على حكمه وأطوف معه فى بعض أحياء القاهرة نزور هذا الماما ونزور ذاك فنطيل عنده الإقامة وهو فى أثناء هذه الزيارات وفى أثناء الطريق التى كنا نقطعها من بيت الى بيت ، مندفع فى مزاح لا ينقطع بصوت مرتفع كثيرا ما كان يلفت اليه الناس ، وكثيرا ما كان يحملنى على أن ألح عليه فى أن يخفض منه

بعض الشيء وعلى أن أقسم له انى لست أصم وانى أسمع همسه فضلا عن حديثه المعتدل . وأن احتج له على أن الناس ليسوا فى حاجة ولساننا نحن فى حاجة الى أن يشاركونا فيما نأخذ فيه من عبث وجد ، وكثيرا ما اضطرأ صدقاؤنا الذين زرناهم الى أن يظهرنا الضيق بصوته المرتفع الذى لا يخفى شيئا ، ولا سيما هذا المزاج الغليظ المسرف فى الحرية الذى يرتفع به صوته حتى يخشى أصحاب الدور أن يبلغ النوافذ وأن ينتهى الى آذان لا ينبغى أن ينتهى اليها .

ومهما يكن من شيء فقد كانت صحبتى له هذا المساء لذيذة حقا متمعة حقا ، كانت لذيذة لهذه الفنون المختلفة التى كان يطرقها فى أحاديثه المتصلة ، ينتقل من بعضها الى بعض فى غير تمهيد ، ولا تنبيه ولا مناسبة ، وانما هو الاستطراد كما يفهمه هو لا كما تفهمه أنت ، ولا كما أفهمه أنا ، معتمدا على هذه المناسبات الظاهرة التى تدعو الى الشرح والتفسير ، وتبيح الانتقال من موضوع الى موضوع ، وانما هى مناسبات خفية كان يجدها هو ولم تكن نجدها نحن . فكان استطراده من موضوع الى موضوع اشبه شيء بالوثوب والقفز من شاطئ القناة الى شاطئها الآخر دون اصطناع جسر أو شيء يشبه الجسر . وكنا نجد فى استطراده هذا ما يلهى ويضحك ويعجب ، وكنا نقدر دائما أنه اذا وثب من موضوع الى موضوع أو قفز من حديث الى حديث ، فلن يعود الى الموضوع الذى وثب منه ولا الى الحديث الذى تجاوزه ، ولكنه كان يقهرنا فلا ينسبه موضوع موضوعا ولا يشغله حديث عن حديث ، ومن أجل هذا استجالت اللذة التى كنا نجدها فى الاستماع له الى تعب مضن للعقل ، منهك للقوى ، ويكفى أن تتصور رجلا يسير بك أو يعدو بك فى طريق ثم لا يلبث أن يعدل بك الى طريق أخرى ثم لا يلبث أن يردك الى الطريق الاولى فيعدل بك الى طريق ثالثة ، وهو يمضى فى ذلك جاهدا متصل الجهد لا يريح ولا يستريح لفأنت واجد فى هذا لذة ، وأنت مستقبله بالنشاط والمرح ،

ولكنك لا تلبث أن يدركك الاعياء والسأم وأنت تتمنى على صاحبك أن يعفبك من هذا الاضطراب أو يمضى بك على صراط مستقيم .
وكم تمنينا وكم الحزن في التمنى ، ولكن عقل صاحبى كان قد ركب على هذا النحو ، فلم يكن يستطيع أن يمضى فى تفكير أو روية أو حديث دون أن ينحرف يمينا أو شمالا ثم يعود الى طريقه الاولى ليعود الى الانحراف عنها ، ومن يدري ! لعل الحياة الواقعة ولعل الحقائق أو الامور المعقولة التى تعمل فيها عقول الناس لا تستقيم ولا تسمح بان يستقيم التفكير فيها ، وانما هى تنحرف وتعوج وتلتوى وتكره العقول على أن تسيرها فى الانحراف والاعوجاج والاتواء ، ولعل عقولنا نحن اوساط الناس يسيرة ساذجة ليست تامة التكوين ولا كاملة الاداة ، فهى ترى الاشياء سهلة ميسرة ، وتسلك فى التفكير طرقا معتدلة مستقيمة وتتعب من الانحراف والاتواء ، أى من التفكير الصحيح . ومهما يكن من شىء فقد كان هذا الاستطراد المتعب لازمة من لوازم صاحبى اذا فكر او كتب او تحدث . فاذا أضفت الى هذا صوته الذى لم يكن يعرف الخفوت ولا يحب الهمس ، واذا أضفت الى هذا انه صمم فى هذا المساء على ألا نركب عربة ولا نتخذ تراما ولا نستعين بأداة من ادوات الانتقال مهما تبعد بنا الطريق لانه قد ازمع ان نجن فى هذا المساء . وكان الجنون عنده ان نهيم فى الارض حتى اذا جهدنا المشى ، استرحنا لحظة ثم استأنفنا الهيام حتى ينتهى بنا الاعياء الى اقصاه . اقول اذا لاحظت هذا كله ، واضفت بعضه الى بعض لم تشك فى انى كنت متعبا مكدودا حين بلغنا منزله فى أعلى الربوة مما يلى القلعة وقد تقدم الليل . وليس من جسدال فى انى لو ملكت يدي ونفسي كما يقول الفرزدق لتخلفت عن مرافقته ، ولتركته فى بعض الطريق ، ولكنه قد احتاط لذلك عامدا أو غير عامد ، فأبى على أن أضطحب غلامى الاسود الصغير ، وقال ارفق به ودعه يسترح ، ولعل اخاك ان يحتاج اليه . وما دمت ستنفق الليل

مهي ، وما دمت سأسأرك الى بيتك مع الضحى فلنأنا في حاجة الى رقيب يسمع ما نقول ، اويحصى ما نهذى به ، وقد لانكون في حاجة الى ان نسمع غطيطه حين يطول عليه حديثنا ، ويشغل عليه سهرنا فيأخذ نوم العميق ، ويهوى به عن كرسيه الى الارض كما كان ذلك ليلة كنا نطيل الحوار في بعض قضايا المنطق التي كنت تراها واضحة كل الوضوح ، وكنت أراها انا غامضة كل الغموض

واستطاع على هذا النحو ان يخرجني من غير خادمي ، وان يحتكم في أذني وفي رأسي وفي رجلي كما أراد . حتى اذا انتهى بي الى داره نحو منتصف الليل كنت محطما او كالمحطم ، وكنت لا اتمنى الا مجلسه استريح اليه من هذا العناء ، وكنت واثقا اني ان ابلغ غرفته الحرام ولن اجلس على ذلك المجلس من الخشب تغطيه الوسائد . حتى انشني على أحد جنبي وأستسلم للنوم

ولكنه لم يمكنني حتى من هذا ، فما كاد بابه يفتح لنا ، وما كادت لخادمتها تهدينا بمصباحها الضئيل الى غرفته الحرام حتى اقبلت بما عندها ، وليتها لم تفعل . فقد اقبلت بابر يق الشاي ومن حوله قطع من فطير الريف . واقبل هو على الشاي يصبه في الاكواب وهو يقول في صوت مكرر : هذا هو الشاي الذي تعتمدون عليه في اتفاق الليالي البيض حين يطلب اليكم الدرس ألا تناموا ، والدرس ياسيدي يطلب الينا في هذه الليلة ألا ننام ، فاشرب من هذا الشاي واستعن عليه بهذا الفطير حتى اذا اخذت من الراحة والغذاء والري بنصيب اخذنا في درسنا المعطل العويص

وقد كنت متعبا مكدودا ولكني كنت جائعا ظمآن ايضا . فلم أجد قدرة على الامتناع عن اخذ ما كان يقدم الي من طعامه الثقيل ، وشرباه الذائد للنوم . واقبل هو على ما حملت الفتاة ، فأصاب

منه في غير رفيق ولا اقتصاد ، حتى اذا احس ان مصلته قد استقرت في جوفه ، وان اعصابه قد تنبعت بعد الخمود ، اخذ في حديثه الذي كان يقدم بين يديه بهذه المقدمات الطوال الثقال التي كانت تلتوى بساوت حملنا ألوان العناء منذ العصر . وكان انتهاؤه الى الاخذ في هذا الحديث بعد الجهد الذي لقيناه ، والمشقة التي احتملناها ساعات متصلة ، اشبه شيء بخلاص الام بعد ان ثقل عليها الوضع ، وابتلأها بالآلام المضنية المنهكة . وكان صوته وهو يأخذ في هذا الحديث هادئا يحاول الرقة وتجري فيه عذوبة مؤلة بعض الشيء كأنه صوت المريض وهو يخرج من المرض او يدخل فيه . قال : اتعلم فيم ارقتك الليلة وكلفتك ما كلفتك من هذه الاهوال التي لم تكن تنتظرها ولا تحب ان تلقاها ؟ قلت : لا واني لانتظر ان اعلم ذلك منذ عزمت على في الخروج معك ، ولو انك استمعت لي واردت بي الراحة ، لالقيت الى حديثك منذ خرجنا ولا رحت نفسك وارحتني من هذا العناء الطويل . قال : لم يكن ذلك يستقيم ياسيدي فكل شيء موعده وابانه . وهذا الحديث لا يصلح له الا الليل اذا تقدم وتجاوز نصفه وغمر كل شيء بهدوئه العميق . على ان جهدك ان يذهب عبثا ، فاني اعرفك تحب المسائل المعضلة ، وتجسد في حل المشكلات لذة ، فاليك مسألة معضلة فواجهها كما تعودت ان تواجه مسائل المنطق والفلسفة والاصول . أيهما اهن ان يحتمل : الظلم ام الكذب ؟ ولست اخفي عليك ايها القاريء اني وجمت حين سمعت هذه المسألة ، ولم استطع ان اسرع الى الاجابة عليها . وظن هو اني افكر فامهلني لحظة ثم سألني عن رأيي فقلت : لا ادري لاني لا افهم معنى للسؤال ، فالظلم قبيح ، والكذب قبيح ، والخير للرجل الكريم الفاضل ان يتجنبهما معا . قال : فان لم يكن له بد من احدهما . قلت : دعني من الامور العامة ، وألق الى حديثك في صراحة ووضوح فلعلي افهم عنك ولعلني استطيع ان ارد عليك . قال في ضحك

هاديء : يظهر انك فاتر عن الفلسفة منذ الليلة . فلنواجه مشكلتنا من طريق غير طريق الفلسفة . ولانبتك قبل كل شيء بانى انما اركت وارقتك معى هذه الليلة لانى سأصبح بطلا قبل ان ينتصف نهار الغد . وانا لا اريد ان انتظر البطولة نائما ولا غافلا ، وانما اريد ان انتظرها يقظان ، وان آخذ لها اهبتها واستعد لها كما يستعد الناس لعظام الامور . وانا اعلم انك ضيق بى وبهذا الكلام الذى لا ينقضى والذى لا يفصح عن معناه ، ولكنى اقسم لك جاهدانى لا امزح ولا اهذى ولا اريد العبث ، وانما اسوق اليك حديثا كله حق وصدق وصواب فلن ينتصف نهار الغد حتى اكون قد بدأت بطولتى واقدمت على عمل ذى بال . ولست ازعم انى سأكون قد بدأت بطلا من طراز الاسكندر أو قيصر ، ولكنى سأكون بطلا على كل حال ، ساكون بطلا لقصة من القصص لتكون تمثيلا أو لتكون قصصا مرسلا ، ولكنى سأكتب الصفحة الاولى منها قبل ان ينتصف النهار غدا

وكان يمضى فى حديثه هذا مستأنيا مستثنيا حتى اخذت أسأل نفسى امجنون هو : ولكنه اسرع فردنى الى شىء من الاطمئنان . قال : اتعرف ان نظام الجامعة يقضى على اعضائها الا يتزوجوا حتى يعودوا من أوروبا ؟ قلت : نعم . قال : ألم يخطر لك ان هذه القاعدة قد تؤذنى وتضطرنى الى بعض الحرج ؟ قلت : وما انت وهذه القاعدة . قال فانت تجهل اذا اننى زوج . وهنا ظهر على دهش صادق لانى كنت اجهل ان لصاحبى زوجا ، وما كان يخطر لى ان امرأة تستطيع ان تحتل الحياة معه مهما يكن حظها من الصبر والحلم ومن العفو والقدرة على الاحتمال . وما كنت استطيع ان اتصوره الا رجلا مضطرب الحياة ظاهرا اضطراب التفكير ، ولكن قوة عقله وسعة علمه وذكاء قلبه هى التى تضطره الى هذا الاضطراب ، وتظهره فى هذا الاختلاط . وكنت ارى انه يقضى

نهاره كما رأته يقضيه يعمل في ديوانه قليلا ويلغو مع الناس كثيرا . ويحيا حياة خفية قوية متصلة قيمة الانتاج وينفق الليل بين القراءة والنوم

فلما رأى ما ظهر على من الدهش والانكار أغرق في الضحك . وقال لقد كنت تظننى طالباً مثلك احيا حياة الطلاب ، ولكنك تعلم انى موظف وان الى بيتا كبيرا وانى من أسرة غنية من أسر الريف . فكيف لم يخطر لك انى لم اكن استطيع ان استكمل ما ينبغى لمثلى من الحياة الا اذا اتخذت لى زوجا . مهما يكن من شىء ياسيدى فأنا متزوج وقد ظفرت بالنجاح فى امتحان الجامعة ولا بد من ان امضى العقد اذا كان النهار ، ومن اصول هذا العقد ألا أكون متزوجا ، وألا أتزوج حتى اعود . فانا اذا مضطرا الى أحدى اثنتين . اما ان اكذب على الجامعة واتورط فى التزوير واتعرض لما يقتضيه الكذب والتزوير من الشر ان ظهر امرهما . واما ان اظلم امرأتى فأطلقها . فماذا ترى ؟ وكيف المخرج من هذه المشكلة ؟ واحب ان تعترف قبل كل شىء بانها مشكلة ممضلة حقا ، وبانها خليقة ان تكلفك ما كلفتك من الجهد ، وتحملك ما حملتك من العناء ، وتؤرقك مع صديقك ليلة كاملة . قلت فدعنا من الهزل ومن لغو الحديث واستقبل هذه المشكلة العنيفة بما ينبغى لها من الحزم والعزم ومن الروية والاناة . قال : فانى أنفقت وقتا غير قصير فى الروية والاناة ، وأنفقت جهدا غير يسير فى التماس الحزم والعزم ، وقد كاد ينتهى ما املك من الوقت ، وقد انتهى ما كنت املك من الجهد ، ومن اجل هذا دعوتك لاستعين بك على الخروج من هذا الحرج الذى لا ادرى كيف يكون الخروج منه ، ان من اليسير ان ازعم للجامعة اذا كان الصباح انى أعزب وان أرسل امرأتى الى الريف لتقيم فيه حتى اعود اليها ان أتيحت لى العودة . وما اظن ان هذا الكذب سيظهر ، وما احسب انه ان ظهر استتبع عواقب ذات خطر ، فمذا يعنى الجامعة من امرى ان عرفت انى

متزوج وانى قد كذبت عليها مادمت لا اصطحب زوجى الى حيث يجب ان افرغ للدرس ، وما دمت ساجعل بينها وبينى هذه الآماد البعيدة في البر والبحر وقد يكون هذا الكذب مرذولا ، وقد يكون منافيا لاخلاق الذين يريدون ان يحيوا حياة العلماء ، ولكنى لن اكذب رغبة في الكذب ، ولا تعلقا به ، ولا حرصا عليه ولا ايسارا افش الجامعة وتضليلها ، وانما اكذب ان كذبت رغبة في العلم ، وتهاكأ عليه وحرصا على ان اغير حياتى واجعل لها معنى وقيمة وخطرا واثرا في منفعة الوطن . والكذب مرذول الا ان ينتهى الى نفع والى نفع صحيح ، وان يحقق مصلحة ومصلحة قيعة ، فماذا ترى ؟ اليس هذا الكذب خيرا من الظلم الذى اقدم عليه ان طلقت امرأتى مع انها لم تأت ذنبا ولم تفترق اثما ولم تدفعنى الى هذه الرحلة بل كرهتها أشد الكره ، ولكنها لم تصرفنى عنها لانها تؤمن بانى لا اعزم الا بعد تفكير صادق ، وانتهاء الى رأى مصيب . وما ظنك تقترح على ان اصددق الجامعة وأظهرها على جليلة الامر . فأتى ان فعلت لم يكن لهذا من اثر الا ان تخيب آمالى كلها ، وان استيثس من رحلتى ، واطمئن الى هذه الحياة الخاملة الذابلة التى لانفع فيها ولاغناء . وانا اعلم حق العلم انى لا املك هذه الشجاعة ولا احتمل هذه الحياة وانى ان صرفت عن هذه الرحلة بعد ان مدت لى اسبابها وهيئت لى وسائلها ميت من غير شك . ميت بالمعنى الصحيح الواضح لهذه الكلمة ، سأقتل نفسى ان ملسكنى الغضب ، وسيقتلنى الحزن واليأس ان اتيح لى الصبر والاحتمال ، فالغ هذا الفرض الغاء وامحه محسوف ليس لى بد من ان اكذب على الجامعة او من ان اطلق امرأتى لآكون صادقا ، فاختر لى واشتر على .

قلت قد انسييت كل ما كنت اجد من تعب وجهد ، وانسييت الوقت وانسييت المكان الذى انا فيه ، وشاقنى علاج هذه المشكلة حتى ملك على امرى كله ، وحتى احسببت كلفا بالاخذ والرد

والحوار ما احسسته قسط في درس من دروس العلم ، وقد لا يحسه شباب هذا الجيل الذي تعود الاستماع لمثل هذه المحاورات ، والاطلاع على مثل هذه المشكلات بعد ان اتسعت حياتنا وبعدت آفاقنا العقلية واشتد اتصالنا بالحضارة الغربية وقرأنا من أدبها وفلسفتها الشيء الكثير . قلت : فاني لا اري لك انظلم بحال من الاحوال ولا افهم ان تحمل امرأتك ذنبا لم تجنسه ولا ان تحمل نفسك هذا الاثم الثقيل ، ومع ذلك فاني لا ارضى لك الكذب ولا اعينك عليه ولا آمن عليك شره واثاره السيئة . قال متضحكا : فانت اذا ترضى لى ان اموت . قلت : بل ارضى لك ان تكون رجلا وان تؤمن بماتلح في الدعوة الى الايمان به ، من ان ظروف الحياة اقوى من ارادة الانسان ومن ان المثل القديم لم يعد الحق حين قال : « لا بد مما ليس منه بد » . ومن يدري ، لعلك تستطيع ان تصور للجامعة امرك كما هو وان تحملها على ان ترضى منك هذا الزواج الذى لن يكون له في حياتك الدراسية أثر كما قلت آنفا . قال : فانك تعلم حق المسلم ان الجامعة لن تغير نظامها من اجلى ، واني لم انجح وحدى في الامتحان ، وان من ورائى اثنين يودان لو تقطعت بى الاسباب عن هذه الرحلة ليفوز بها احدهما من دونى . فانا ان صدقت الجامعة ، مضح برحلتى من غير شك واذا حيل بينى وبين هذه الرحلة فقد حيل بينى وبين الحياة واتصلت بى أسباب الموت فليس الى هذا الصديق من سبيل . وانت تخطىء ان ظننت انه تحمس الشباب او انه التعجل والتقصير في التفكير ، فانا اعرف نظام الجامعة هذا قبل ان اقدم على الامتحان ، وانا افكر فيه منذ اعلنت الجامعة الى هذه البعثة ، ومنذ ظهرت نتيجة الامتحان خاصة . فليس الى هذا الصديق الذى تطلبه من سبيل . لن أعدل عن الرحلة ولن أصارح الجامعة بجملية الامر . قلت واذا فقيم تستشيرنى وقد اجمعت امرك ووطنت نفسك على الكذب ؟ قال : كلا ياسيدى لنم اوطن نفسى على الكذب ولو قد

وطنت نفسي عليه لامعنت فيه ولاخفيت جليسة الامر عليك
ولا جتهدت في اخفائها على نفسي، ولكني قد وطنت نفسي على
الظلم، فأنا أريد ان أكون صادقاً، حين اتحدث الى الجامعة ، اذا
كان الصباح ، وان اكون ظالماً للنفسى ولامرأتى . قلت : فانى
أرى فى هذا اثماً بشعاً واستباحة قبيحة للشر ، واعتداء على حق
من لا تملك الاعتداء عليه . قال وهو يضحك حزينا : وانت مع
هذا ازهرى تدرس الفقه وتعرف ان الطلاق مباح وانه ابغض
الحلال الى الله ولكنه مع ذلك حلال لاخطيئة فيه ، ولا اثم على
الذين يقدمون عليه . فأمر الزواج عندنا ليس الى امرأتى
بعد ان قبلته وهو ليس اليها والى ، وانما هو الى وحدى ،
فانا استطيع ان امسكه ان شئت واستطيع ان احل عقده ان
أردت ، وانا أريد ان احل هذه العقدة لا ايثارا للطلاق ولا رغبة
عن امرأتى ولكن ايثارا لما هو خير من الزواج ولما هو خير من الزوج
وان كانت خليفة بالحب والمودة والعطف ، ايثارا للعلم ورغبة فى
رقى النفس والعقل ، قلت : فانى أخشى ان يكون هذا كله غرورا
ووحيا من وحى الامانى ، وما أدري أيهما خير : هذا العلم الذى
تتحدث عنه كانه شيء لا يدرك الا اذا تكلفت له ما ستكلف من
الشر ، ام هذه الزوج التى اصفتك ودها ومنحتك حبها ،
ووقفت حياتها عليك وجعلها الله رحمة لك وسكنا . ومن
يدري ! لعل تحصيل هذا العلم الذى تنهالك عليه وتستبجح فى
سبيله الظلم ، ان يكون ميسراك وانت مقيم فى مصرين اهلك
لاتفارقهم ولا تتكلف لهم ظلما ، ولن تكون اول من حصل العلم
دون أن يرحل اليه ، والعلم يعبر الينا البحر من أوربا ، وهو
يسمى الينا فى دورنا ، ونحن نستطيع ان نلتمسه فيما يلقى
من الدروس وفيما يؤلف من الكتب . وانى لاخشى الا يكون
حب العلم الخالص هو الذى يفريك بهذه الرحلة التى لن
اتخرج من ان أراها آثمة ، وانما يفريك بها سأم الاديب
والحرص على تغيير الحياة ، والطموح الى منصب الاستاذ ،

وهذا كله يغرى ولكنه يجب ان يكون أهون على الرجل الكريم من ان يدفعه الى الظلم والاثم والعدوان . قال : يا سيدي انك تضيع وقتك ووقتي ، فلن تقنعني بالعدول عن الرحيل ، ولا باظهار الجامعة على جاية الامر . وليس الى اقتناعي بالكذب على الجامعة سبيل . أتدري لماذا أهون عليك؟ فاني أرى هذا الكذب مباحا وما أكثر ما أبيع لنفسي أشياء تحرمونها أنتم على أنفسكم ، ويحرمها عليكم الدين وما تواضعتم عليه من الاخلاق . انا لا اكره هذا الكذب لاني اراد ائما ، وانما اكرهه لانه سيدفعني الى آثام امقتها حقا ، والى ظلم ارى ان ظالم الطلاق أهون منه . اني لاعرف من امر اوربا شيئا كثيرا . وقد قرأت غير قليل مما ترسل الينا من القصص ، وسمعت غير قليل من انباء الذين يرحلون اليها و يقيمون فيها . وكل هذا ينبئني بانى لن اقاوم الحياة الاوربية وآثارها في نفسي كما ينبغي للرجل الوفي لزوجته ان يقاومها . فانا واثق يا سيدي بانى سأتهم وسأنغمس في الخطايا وانا اريد ان احتمل وحسدى هذا الاثم وأنغمس وحدى في شر هذه الخطايا . وانا ابيع لنفسي ان اكذب على الجامعة ، ولكنى لا ابيع لنفسي ان اكذب على امرأتى كذبا متصلا ، فازعم لها انى وفى امين ، على حين انى قد غرقت فى الخيانة الى اذنى . قلت وقد اقشعر جلدى واضطرب قلبى واخسذنى غضب عميق لا اكاد أجهر به ، ولا أكاد أخفيه : فهل تعلم انك تقول منكرا من القول ، وانك تقدم على امر بشع شنيع ، وان حبنى لك يحملىنى على ان أتمنى ما استطعت أن تصرف عن رحلتك هذه صرفا ، وان تكره على الإقامة فى مصر اكراها . انت تعلم انك ستأثم فى اوربا ثم تقدم مع ذلك على السفر اليها ، وتشتد فى هذا السفر . فانت اذا تريد الاثم وتتعمد الخطيئة وتصر على المعصية ، ولكن كلمة المعصية هذه لم تكذب بلغ اذنيه حتى جن جنونه ، واندفع فى ضحك عريض ، عال متصل ، أخرجه عن طوره وكاد ينتهى به الى الشر فى جسمه وفى عقله ايضا . وكان هو يضحك ويضطرب اضطرابا عنيفا من شدة الضحك وانا واجم ذاهل

مبهوت أسأل نفسي أول الامر عن هذا الخبل الذي مسه ، ثم تشوب الى نفسي قليلا قليلا واذا انا احس العمامة التي على راسي وأحس الجبة والقفطان اللذين اسبغا على جسمي اسبغا ، واذكر اني شيخ واني ازهرى ، واني تحدثت الى صاحبي حديث رجل الدين ، وان صاحبي يسخر مني ويهزأ بي ويردني الى مكاني الاول ، ويرى ان امله في قدخاب وان اختلافي الى الجامعة واستماعي للاستاذة الاوربيين وتحدثي اليه واستماعي منه ، وما قرانا من كتب اوربية ، وما كنت اتكلف من التجديد والخروج على الازهر والازهرين والتكره ولهم ، وما كنت ارمى به من المروق وايتار البدعة ، وما كنت اجد من اللذة حين احس ان الناس يرون في المروق وحب البدع ، كل هذا لم يكن الاغشاء رقيقا وطلاء يسيرا لا يكاد يثبت للتجربة الاولى ، فاذا جد الجد ، وكان اول درس من دروس الحياة العاملة التي ليست كلاما ولا غرورا ، فانا الشيخ الازهرى القح الذي حفظ من كتب الدين وورث ماورث من آثار القرون ، واحتمل في قلبه الضئيل وعلى كتفيه الصفيرتين ، ثقل السنين التي توارثها الاجيال اثناء ثلاثة عشر قرنا .

أقول الحق أم أخفيه ، وما لي لا اصطنع الشجاعة ولا احمل نفسي على بعض ماتكره ، وان الحياة لتحملها على ماتكره في اكثر الاحيان . لقد استحييت من صاحبي ، واستحييت حتى انتهيت الى الخزي ، واحسست كأن رأسي ذاب في عمامتي ، وكأن هذه العمامة لم تكن تستقر على شيء . وأخذت أتضائل في جبتي وقفطاني . حتى خيل اني انهما يستقران على هذا الكرسي لا يملؤهما شيء . واخذت قطرات من العرق تسيل على جبهتي فتبلها . وكادت الرعشة ان تجرى في جسمي المتضائل المضطرب . كل هذا لان صاحبي ظهر على جليلة امرى . وعرف أنني ما زلت ازهرى النفس وبقنب العقل . ارى الانغماس في الحياة الاوربية اثما واشفق على صاحبي منه ، وارى الاصرار على الخطيئة

وتعمد الاقدام عليها كفرا ، واخاف على صاحبي عواقبه .
واذا فأتى فرق بينى وبين هذا الشيخ العتيق الذى كان يعرض
بالاستاذ الامام الشيخ محمد عبده فيتغنى فى بعض دروسه
بهذه الجملة التى شاعت والتى كنا نتندر بها ، ونضحك منها .
وكننت انا أشد الناس تنديرا بها وضحكا منها ، « ومن ذهب الى
فرنسا فهو كافر او على الاقل زنديق » .

كذلك قال الشيخ وبذلك كنا نتندر فى الازهر ، ومن ذلك كنا
نضحك فى انديتنا الحرة التى كان الازهريون يرونها أندية ابتداع
وضلال . فقد أصبحت انا بهذا الشيخ ارى ان من ذهب الى
فرنسا فهو كافر او على الاقل زنديق . ومع ذلك فان اساتذتى
من الفرنجة فى الجامعة يرون انى حر الرأى ويشفقون على من
حرية الرأى هذه ، وكننت انا ارى انى حر الرأى وأغتبط بما يصيبنى
فى سبيل هذه الحرية . فقد كنت اذا اكذب على نفسى ، وكننت
اذا اخدع اساتذتى ، ولم اكن الاشياخ ازهريا قحا يرى ان من
ذهب الى فرنسا فهو كافر او على الاقل زنديق .

كذلك كنت افكر مستخزيا متضائلا من الخزى بينما كان
صاحبي يفرق فى الضحك ، حتى اذا اعياه اضطراب جسمه هدا
بعض الوقت يتكلف الهدوء ، ثم لا يلبث ان يعود اليه الضحك
العنيف فيهرزه هزا عنيفا وهو يردد كلمة المعصية هذه ويقول
مازلت تؤمن بالطاعة والمعصية وتردد هاتين الكلمتين ، ومازلت
تفكر فى الكفر والايمان .

ثم يمضى فى الضحك وامضى انا فى الخجل والاستخزاء . ومع
ذلك فلو انى كنت اتحدث الى رجل هادى عادى غير غريب
الاطوار ، لما انكرت من حديثى شيئا ولما رأيت على نفسى منه
بأسا ، فلم اكن ارى الذهاب الى فرنسا كفرا ولا زندقة وانما
كانت طبيعتى كلها تشور لهذه الجرأة الوقحة ، التى كان يقدم عليها
صاحبي فى غير تكلف ، وهو يتحدث عن الخطايا والآثام وانغماسه

فيها وتهيئته للانغماس فيها . ولقد مضت أعوام وأعوام وذهبت الى أوربا مرات ومرات وأقمت فيها . فأطلت الإقامة ، وما زلت اليوم كما كنت في تلك الليلة تشور طبيعتي كلها اذا سمعت من يتحدث في هذه الجراحة الوقحة عن الخطايا والاثام والتهسيؤ للانغماس فيها . ولا بد من أن أمضي من قول الحق الى أقصاه ، فقد وادعت صاحبي وصانعته واجتهدت في أن أقنعه بأنني لست شيخا أزهريا قحاً ، لم أحب اليه فراق امرأته ولم أعنه على التهيؤ للانغماس في الخطايا والاثام . ولكنني فقدت القدرة على مقاومته . وعجزت عن محاولة اقناعه بما كنت أرى ، لا لاني علت الى رأيه ، بل لاني كرهت أن يراني شيخا أزهريا قحايؤ من بأن من ذهب الى فرنسا فهو كافر أو على الاقل زنديق .

وكذلك يسيطر الغرور على أنفس الشباب فاذا هم يتكلمون ما لا يحسنون ويحملون أنفسهم ما لا يطيقون ، ويتكلمون هذا النفاق الغريب يخفون به ما في نفوسهم من أصول الخير ويظهرون به ما يرغبون فيه من مظاهر التجديد .

ثم يرتفع الضحى واذا صاحبي يردني الى بيتي ويفارقني ليذهب الى الجامعة ويقول في لهجة ساخرة لاذعه : سألقاك مع المساء ، فلا بد من أن نستأنف حديث الطاعة والمعصية ، فاذا لقيني في آخر النهار علمت منه أن الجامعة قد اختجرت له مكانه على احد السفن ، وأنه مرتحل بعد أسبوع وأن زوجه قد ارتحلت ظهر اليوم الى الريف وأن طلاقها سيبلغها اذا كان الغد .



يونيو في سنة ...

بينك وبينى أيها الصديق العزيز فتور أحسنه أمس حين التقينا في قهوتكم هذه التي تزدحم بالشيوخ ، ويشتهد فيه لخطهم بالفقه ، والنحو ، والادب وتختلط أصواتهم بهذه الضوضاء العنيفة التي تصدر عن الناس وعن النرام وعن هذه العربات التي

تخرج مع المساء من درب الجمايز الى شارع محمد علي ، لتنبث في
أحياء القاهرة موزعة عليه ما يحتاج أهلها من اللحم . وقد كان هذا
الضبيح المختلط خليقا أن يحول بيني وبين الشعور بهذا الفتور ،
حتى يطول الحديث بيننا ، ولكني لم أكد أصفحك حتى أحسست
الفتور في يدك ، وتأكدت انه صورة للفتور في نفسك ، فلما
تحدثنا فصل لي صوتك الهادي ما أجملت يدك ، واستيقنت أن
بينك وبينى شيئا .

ولولا أصحابك من الشيوخ هؤلاء الذين أحب أن أراهم من
بعد ، وأكره أن أجلس اليهم ، وأن يتصل بيني وبينهم الحديث ،
لولا أصحابك الشيوخ هؤلاء ، وما كانوا يشغلوننا به من
أحاديثهم عن الازهر ومدرسة القضاء ودار العلوم ، وما كانوا
يشغلوننا به من تهالكهم على أصحاب الطعام حين كانوا يمرون
بما يحملون من الفطير والشواء وما يشبهها من هذه الاطعمة
الرخيصة ، لولا أصحابك الشيوخ هؤلاء لما اتصل الحديث بينك
وبيني أمس الا في هذا الفتور الذي تبينته في يدك وفي صوتك ،
وفي وجهك . ولما انصرفت عنك الا وقد رددت الامر الى ما كان
عليه ، من هذا الصفاء القوي الذي لا تكلف فيه ، ولا احتياط .
ولكني جعلت أنتهز الفرص لاخلو بك ولتفرغ لي فلا تسنح ، ولم
يكن من اليسير أن أطلب اليك النهوض معي لبعض الشئون كما
تعودنا أن نفعل ، فقد كنت على ثقة بأنك ستعذر ، وستتعلل
بأنك متعب مكدود من ليلتك البيضاء ، التي قضيتها معي
أمس .

على أني لم ألبث أن تبينت أني لم أكن مخطئا فيما كنت أقدر
حين رأيته تتعجل العودة الى بيتك ولا تحفل بالحاحي عليك
والحاح أصحابك في أن تبقى معنا كما تعودت أنه تبقى حتى يتقدم
الليل ، وتقل الضوضاء في الشارع ، يطيب الحديث في
هذه القهوة الجميلة .

ولقد هممت أن أنهض لرافدك الى بينك ، لكنك أظن أن في

مرافقتك هذه الدقائق ما يتيح لي أن أدير الحديث بيننا حتى أبلغ هذا الفتور ، وكنت واثقاً بأنني إن بلغتته فلن أدعه حتى أمحوه محواً ، وإن أرقنتك ليلة أخرى . ولكن الله لم يرد ذلك ، أو لم يرده أصحابك الشيوخ ، فقد نهض صاحبك هذان اللذان طالما نفصا على مجلسي معك فراقفاك ، واضطرت أنا إلى التخلف ، والله يعلم إلى أين ذهبت ، فلست أشك في أنهما لم ينصرفا عنك حين انتهيت إلى بيتك ، وأكاد أعتقد أنك إنما تكلفت الانصراف وتعجلت العودة لتخلص مني ومن كان من أصحابك ، ولتفرغ لصدايقك هذين فتقضى معهما شطرا من الليل غير قليل ، فيم تعودتم أن تنفقوا ليلكم فيه من عبث وحديث ولولا أنني كرهت أن أثقل عليك وعليهما وأن أوصف بالالجاج ، لتبعنكم لأعلم علمكم ، ولاسقط عليكم بعد أن يستقر بكم المجلس ، ولا اتخذ موضوعاً للصراع بينهما وبينني ، فلا أنصرفا عنك حتى أصرفهما ، وما أوسع حيلتي حين أريد أن أصرفهما عنك ، وأى شيء أيسر من أن آخذ معك في بعض الحديث ، الذي لا يحبانه ، ولا يسيغانه ، ولا يفهمانه ، فإذا أنت تجيب وإذا أنا أمضي في الحديث ، وإذا هما يظهران الضجر ، ثم يظهران الضجر الشديد ، ثم يتشاءبان ، ثم يؤذنان بعزمهما على الانصراف ثم ينصرفان ، ولكني لم أنشط لشيء من هذا لأنني لم أجد منك ما يعينني على النشاط إليه ، ولأنني لم أجد من نفسي ما يدفعني إلى هذا النشاط . فقد كنت أنت فاقراً ، وكنت أنا مثقل النفس بالهم ، مملوء القلب بالحزن ، والله يعلم ما احتجت إليك في يوم أو ليل كما احتجت إليك أمس ، وما افتقدتك في يوم أو ليل كما افتقدتك مساء أمس لقد رأيتمكم تنهضون ، وأتبعنكم بصرى ، وأنتم تسعون إلى درب الجمايز . حتى إذا انعطفت بكم الطريق ، أثبت بصرى في الفضاء أمامه كأنما كنت أريد أن ينعطف معكم وأن يبلغكم وأن يدعوكم إلى وأن يردكم على ، ولكن بصرى لبث ثابتاً في الفضاء ، لم يستطع أن يتبعكم ولا أن يبلغكم ولا أن

يؤدي الى أنفسكم ولا الى نفسك أنت خاصة رسالة نفسي ،
 فرددته الى خائباً محزوناً ، ومكثت في قهورتكم هذه أنظر
 ولا أكاد أرى ، والهي السمع ولا أكاد اسمع ، ويتحدث الى من
 حولي فأجيب حيناً ، واذهل أحياناً عن الجواب . وقد تفرق
 الناس من حولي كما تعودوا أن يتفرقوا حين كاد الليل أن ينتصف
 وخلت القهوة لي ولجماعات ضئيلة تفرقت فيها حول بعض اللعب ،
 فأنفقت فيها ما استطعت أن أنفقه من الوقت ، واستطيع أن أنبئك
 صادقاً بأنني دهشت حين سمعت الخادم ينهني الى أن قد آن
 أو ان الأفلاق ، فنهضت كارهة متثاقلاً ، واخذت الطريق التي
 أخذتموها ، في درب الجماميز ، اسعى امامي وكأني كنت أقدر
 انني سألقاك عائداً الى بيتك مع أحد صاحبيك ، فأخذك منه
 قهراً أو أنفق معك بقية الليل ، هائمين في القاهرة ، أو لاجئين
 الى داري أو الى هذا السطح الجميل الهادي الذي ينسبط
 امام بيتكم الصغير . وكنت كالمستيقن بأنكم انما ذهبت عند
 أحدكم في هذا البيت الذي يسكنه غير بعيد من بيتي عند
 جامع ابن طوان ، فسمرت ما شاء الله ان تسمروا واهزأتم بسيو حكم
 في الازهر ما شاء الله ان تهزأوا ، وذكركم من انباء صاحبكم . . ما
 شاء الله ان تذكروا ، وتناشدتم الشعر وهجا بعضكم بعضاً ،
 واثني بعضكم على بعض ، ثم آن لكم أن تتفرقوا فبقى أحدكم
 في بيته وخرجت انت مع صاحبك تسعيان في هدوء الليل الساكن
 وتمضيان فيما كنتم فيه من لغو ، وتضحكان من هؤلاء السكارى
 الذين يتخبطون في هذه الاحياء الوطنية حين يعودون الى بيوتهم
 آخر الليل ، حتى اذا بلغت بابيتك آويت اليه ، ومضى صاحبك
 وحيداً ، يسرع في هدوء الليل كأنه السهم ، حتى يبلغ داره في
 أقصى الظاهر .

كنت أقدر هذا كله واكاد أثق به ، واكاد لا اشك في اني سألقاك
 مع صاحبك في بعض الطريق ، والله يعلم ما سمعت وقع أقدام

من بعد ، إلا خيل الى انها اقدامكما ولكنى قطعت درب الجماليس حتى انتهيت الى السيدة دون ان القاكم . ثم مضيت نحو جامع ابن طولون ، فلم القكما ، ثم انعطفت حتى مررت ببيت صاحبك فلم القكما ، ولم أر فى البيت ما يدل على يقظة ، ولم اسمع منهما ينبىء باتصال السمر والحديث .

فمضيت فى طريقى يائسا من لقاءك محزوننا لهذا الفتور الذى لم استطع ان امحوه حتى انتهيت الى بيتى ، وليتنى لم انشه اليه لقد كنت ذاهلا حين بلغت البيت فدققت الباب كما تعودت ان افعل وانتظرت ، ثم دققت مرة اخرى ، ومرة ثالثة ، وكان الصوت يتردد فى هذه الدار ، ثم يعود الى فينبئنى بشىء لا أكاد أفهمه حتى اذا كانت الطريقة الثالثة عاد الصوت الى ينبئنى بما فهمته وارتعت له ، عاد الصوت الى يقول لى انك لاحمق ، فيم تطرق الباب وليس من ورائه من يسمع لك ، ولا من يسرع اليك : لقد تحملت من كان فى البيت واصبح البيت خاليا فارغا هادئا ينتظر مقدمك لتملأه وتعمره وتذيع فيه الحركة لا تعد طرق الباب ، فلن يستجيب لك احد ، ولكن اخرج المفتاح وادره فى القفل امامك ، فاذا انفتح الباب لك ، فادخل واغلقه من دونك أو لا تغلقه فمن يدري ا لعاك لا تستطيع مصاحبة لهذه الوحدة المروعة فى هذا البيت الذى لم يتعود الفراغ . لن تهديك الخادم الصغير بمصباحها الضئيل كما تعودت أن تفعل . فأنت تعلم انها سافرت مع سيدتها ، فأخرج من جيبك علبة الثقاب واضىء لنفسك ظلمة الطريق واذهب الى أى الوجهين شئت ، واذهب الى غرفتك الحرام فلا بأس عليك من الالتجاء اليها ، ان يبلغك فيها صوت ، ولن تنتهى اليك فيها حركة . ولن تتحدث فيها الى صديقك ، ولن تلقى فيها الا كتبك التى لا تحصى . ومن يدري ! لعل نفوس المؤلفين لهذه انكتب قد اقبلت جماعات من أعماق الزمن ومن اقطار الارض لتؤنس وحشتك فى هذه الغرفة الخالية . واذهب ان شئت الى غرفة نومك فان ترى فى السلم سراجا مضئيا ولن ترى اذا انتهيت الى اعلى السلم خادمتك الصغيرة مستلقية تغاب النوم

وتنتظر مقدمك . ولن ترى في غرفتك امرأتك في سريرها تتكلم
النوم وهي مستيقظة ، ولكنها لا تريد أن تؤذيك ، ولا أن تشق
عليك ولا أن تلقى في روعك انها تارق حتى تعود الى غرفتك .
فالله يعلم انها لا تارق الا انتظارا لك ، وشوقا اليك ، ولكنك خاليق
أن تسيء الظن وان تقدر انها تارق لتحصي عليك الساعات .
تستطيع الآن أن تدخل هذه الغرفة لا مترفقا ولا محتاطا فلن
توقظ أحدا ، ولن يحس مقدمك أحد ، ومن يدري ! لعل ظلا من
امراتك قد أقام في هذه الغرفة ينتظر مقدمك ويأبى أن يفارق
هذا البيت حتى تفارقه انت لتعبر البحر .

نعم عاد الى صوت الطريقة الثالثة بهذا الحديث الطويل ، في
لحظات لا ادري اكن طموحا ام قصارا ، ولكن الذي اعلمه هو
اني لم اخرج المفتاح ولم ادره في القفل امامي ، ولم يفتح لي
الباب ، وانما لبثت قائما امام البيت بعد ان تردد هذا الحديث
في اعماق نفسي ، فملاها حزنا ووحشة ورعبا ، وأكاد أكتب
وندماء ، ولكني لا اريد ان اعترف بأنني أحسست الندم .

ولبثت قائما امام البيت اسأل نفسي أقدم ام احجم ؟ أدخل
الدار ام انصرف عنها . ثم لاخفى عليك لقد عجزت عن الاقدام
وكرهت أن أفتح الباب ، ولم احس شوقا الى لقاء الظلال ،
خلال العلماء والادباء والفلاسفة ، قد اقبلوا يؤنسوا وحشتي في
الغرفة الحرام . ولم اجد جلد اعلى ان القى ظل امرأتى في غرفة
نومي ، وانما استحييت منه أشد الاستحياء ، لم ادخل
الدار وانما انصرفت راجعا أدراجي ، ومضيت اهيم في
الطريق أمامي ، اخرج من شارع لا دفع الى شارع آخر ، لا احفل
بما قد يظنه بي هؤلاء الخفراء والشرطيون الذين لا اشك في
انهم كانوا ينكرون شخصي الهائم في مثل هذه الساعات المتأخرة
من الليل ، ولعل منهم من هم ان يسألني عن امرى ، ولكنه لم
يجد على من مظاهر الريسة ما يفريه بهذا السؤال ، فخلى بيني
وبين الطريق .

وما زلت أهيم وأهيم في غيروجه حتى أحسست يقظة الناس من حولي ، وسمعت أصوات المؤذنين تتجاوب بالدعاء الى الله فشابت الى نفسي بعض الشيء مع ضوء النهار ، وتكلفت في مشي ومظهري ما يصرف عني كل ريبة أو شك ومضيت في هيامي ، ساعة وبعض ساعة ، ثم انظر فاذا انا عند قهوتكم هذه التي التقينا فيها مساء الامس . من اين جئتها ، وكيف انتهيت اليها ، لا ادري ولكني قد باغتها وبلغتها متعبا مكدودا ، وما كدت أرى هذه الكراسي ينسقها الخادم في شيء من الكسل والفتور حتى أحسست كأن هذه الكراسي تدعوني الى الراحة ، وحتى رأيتني استجيب لدعائها ، واسرع الى الجلوس ، واطلب الى الخادم ان يحمل الى الشاي . ومن قهوتكم هذه اكتب اليك الآن ايها الصديق . وكنت اريد أن اتحدث اليك عن هذا الفتور الذي أحسسته منك أمس لامحوه ولا تم معك الحديث الذي كنا فيه والذي قطعته أنا بهذا الضحك المفاجيء السخيف الذي دفعت اليه دفعا والذي أفسد الامر بينك وبينى . ولكني لم أحدثك الى الآن الا عن نفسي وعن ليلتي البيضاء الثانية التي قضيتها في غير راحة ولا امن ولا هدوء . على حين لهوت انت مع صاحبك ثم استمتعت بالراحة والنوم ، وها انت ذا الآن تستقبل النهار نشيطا مستريحا مبتسما للحياة ؟ تريد ان تمضي فيما تعودت ان تمضي فيه من القراءة و الدرس ، أو تريد ان تخرج للقاء صاحبك احدهما أو كليهما ، أو تريد ان تنتظرهما فلعلهما ان يزورك ليخرجاك أو ليبقيا معك . ألسنت ترى انك أثر مسرف في الاثرة وانك تترك صديقك يحتمل وحده اثقال الشقاء ؟ ألسنت ترى ان من حق صديقك عليك ان تسرع اليه فتسمع منه ؟ وتقول له ، وتسليه وتواسيه ، فانه سيشقى وحده دهرًا طويلا حين يعبر البحر الى تلك البلاد التي يس له فيها صديق ؟ سأرسل اليك هذا الكتاب مع خادم القهوة وسأنتظر بعد ارساله

صناعة فمن يدري لعل أن أراك مقبلا مع غلامك الاسود الصغير . . .

دخل على بهذا الكتاب غلامى الاسود الصغير هذا وانا اتيهيا للخروج وكنت كما قدر صاحبنى على موعد من صديقى لنذهب الى دار الكتب . ولكن الغلام لم يكد يفرغ من قراءة هذا الكتاب على فى لهجته الاسوانية التى كانت تضحكنى عادة لانها تجعل القاف غينا والغين قافاوالتي تضحكنى اليوم وانما اذتنى وملاص صدرى حرجا . لم يكد يفرغ من قراءة هذا الكتاب حتى خرجت معه ولكن لا الى قهوة دار الكتب حيث كان ينتظرنى صديقاى، بل الى قهوة الزاوية حيث كان ينتظرنى صاحبنى هذا الشقى .



الم اقبل لك اول امس انى سأصبح بطلا قبل ان ينتصف النهار من غد ؟ فانى قد صرت بطلا منذ امس وما ظنك تمارى فى ذلك بعد أن قرأت الكتاب انذى ارسلته اليك منذ حين . قال ذلك وضرب المائدة امامه بعصا ضربا خفيفا ، فلما اقبل الخادم طالب اليه ابريقا من الشاى ، ثم استأنف حديثه متعبا مكدودا وفى صوته شىء غير قليل من التكسر والفتور . قال : نعم لقد صرت بطلا منذ امس بطلا لقصة قد تكون كلها جدا وقد تكون كلها هزلا وقد تكون مزاجا من هذا وذاك ولكنها قصة لا بد لها من بطل على كل حال ، وقد اردت أو أرادت الظروف أو أراد القضاء الخفى أن أكون هذا البطل . فليس من الاشياء الهينة أن يقدم الرجل على طلاق امرأة يحبها ويؤثرها ويعرف لها جميلا لا يستطيع ان يقدره ولا ان يكافئها عليه . ليس هذا من الاشياء الهينة ولا سيما حين تكون هذه المرأة كريمة النفس رضية الخلق طاهرة القاب نقيّة الضمير لا يأخذها زوجها بخيطة ولا يتعلق عليها بسيئة ولا يلقي منها الا ما يسره ويبره ويرضيه ، ومع

ذلك فقد أقدمت على هذا الشيء الخطير ايثارا للعلم وان شئت
فقل ايثارا لرقى الدرجة وارتفاع المنزل ، وان شئت فقل اجتنابا
للكذب على الجامعة وفرارا من الخيانة الممكنة ، بل الراجحة ،
بل المحققة . . وأنا اعلم انك قد انكرت على هذا وانك كنت
تجادلنى فيه ، ولكن تلك الضحكة التى لقيتك بها حين انتهيت الى
بعض الحديث قد قطعت على وعلى عليك هذا الجدل وكادت
تفسد ما بينك وبينى من الامر .

فالآن وقد قرأت كتابى وعرفت من امرى ما عرفت وزال من
نفسك هذا النفور الذى كنت أحسه امس فقد نستطيع ان نعود
الى هذا الحديث لتعلم انى لم اكن مخطئا فيما كنت اعترم وانى
لست مخطئا فيما صممت عليه من فراق امرأتى قبل أن أرحل
الى اوربا . واقبل الخادم يحمل الشاي فملا منه قدحا لي وقدها
له وهو يقول هذا خامس اقداح الشاي التى شربتها منذ بلغت
هذا المكان فى اول النهار .

ثم عاد الى حديثه من حيث انقطع حين كنا نتحاور فى داره ،
فقال : لقد كنت تلومنى على انى اقدر الاثم وافكر فيه واعلم منذ
الآن انى سأقترفه وأتهيا بفراق امرأتى لا قترافه ، وكنت ترى
الاصرار على هذا كله خطيئة بل كفرا وخروجا من الدين ، وكان
حديث الكفر يدهشنى لانى لم اكن انتظره منك بعد ان عرفت
حر الرأى غالبا فى التجديد . فلا تغضب ان اظهرت هذا الدهش ،
وعد بنا الى خلاصة الحديث فأيهما خير ؟ ان يعرف الانسان
مكانه من القوة والضعف ونصيبه من القدرة والعجز ، وان يحتاط
لما يعرف من ذلك فلا يقترب من الآثام ولا يجترح من السيئات الا
ما لا يجد منه بدا ولا عنه منصرفا ، ام أن يخدع الانسان نفسه ويفره
بها الغرور فيضيف اليها الخير وليست بخيرة ويثبت لها الفضيلة
وليست بفاضلة ويحملها ما تطيق وما لا تطيق ، ويقترب من الآثام
ما يستطيع ان يجتنبه ويتقى التورط فيه . وما رأيك فى انى
أعرف من نفسى مواطن الضعف وأقدر ان الحياة الجديدة فى ذلك

الذي أنا راحل اليه ستمحو منها هذا المقدار اليسير الذي بقي لها من رعاية العبادات والاحتفاظ بالتقاليد والحرص على ما تواضع الناس على انه الخير، وستغمرني امواجها الزاخرة المصطنعة فلا أقوى على دفعها ولا مقاومتها وانما اعيش كما يعيش الناس وآتى من الخير القليل والشر الكثير ما يأتون . افان صارحت نفسي بالحق وأخذتها بأن تحتمل وحدها أوزار اعمالها كنت خاطئا ممعنا في الخطيئة وكافرا مسرفا في الكفر . فاذا ضللت نفسي تضايلا وغررتها تغريرا وزينت لها وللناس انى سيكون في فرنسا خيرا مما أنا في مصر تقيا نقيا وبراطاهر القلب ، وانا اعلم ان ذلك ان يكون مهما احاوله واعلم قبل ذلك لن أحاوله لاننى لن أستطيع التفكير في محاولته ، افان عمدت الى هذا التضليل والتغريير برئت من الخطيئة ونجوت من اثم الكفر والمروق .

أست ترى في هذا النحو من التفكير والفهم والحكم عوجا والتواء ؟ قلت : لا ادرى ولكنى اوثر للرجل ان يقع في الخطيئة ان لم يكن له بد من الوقوع فيها على غير علم بذلك ولا تهيدؤ له ولا تفكير فيه ، وثرى في هذا الاستعداد للآثم بدأ في اقتترافه وفي هذا التهيدؤ للأساءة شروعا في الاساءة وفي هذا التفكير في الشر قبل ان يقع مع ان من الممكن الا يقع استعدادا رديئا للشر والاحاحا آثما في دعائه ، وقد كان يحسن الا تدعوه .

والامر لا يقف في رأيي عند الدين ولا عند الكفر والايمان ولا عند رعاية العبادات والاحتفاظ بالتقاليد والاخلاق ، وانما هو يتجاوز هذا كله الى شىء لا ادرى كيف اصفه ، ولكن صورته تقع من نفسى موقعا سيئا . ففسد يخيّل الى ان الانسان المتحضر المثقف خليق ألا يتجرد ولا يعرى حتى امام نفسه ان وجد الى ذلك سبيلا . وقد يخيّل الى ان حياء الرجل المثقف من نفسه هو خير انواع الحياء وارقى منازلها . وقد يخيّل الى ان في مواجهتك لهذا الشر الذى لم تعرفه ولم تدفع اليه بعد وفي تأهيك له ، شيئا من الخروج من هذا الحياء الذى لا ينبغى للرجل المتحضر المثقف ان يبرأ منه

قال : فانت تريد ان تقول انى وقع امام نفسى ، فليس غريباً ان اكون وقحا امام الناس ! قلت فى شىء من التحفظ : هو ذاك ، بل ان فى الامر ما هو اغرب من هذا ، فانك لا تظهر وقحا امام الناس ، وما اعرف ان احدا الساء الظن بك او شك فى سيرتك او رماك بالخلاعة او اتهمك بالمجون ، فانت اذا تظهر للناس غير ماتمسر ، وانت اذا تكاشف الناس بما لا تكاشف به نفسك ، وانت اذا خليع ما جن ، ولكنك تظهر للناس انك صاحب جاد واحتشام . قال وقد عاد اليه نشيطه واستأنف ضحكته العريض : فانى ياسيدى خليع ما جن ، ما ارى فى ذلك عيباً وما اشك فى انى عظيم الحفظ منه . واذا اخفيت ذلك على الناس فما اخفيه الا اتقاء لشر الناس وايتثار المنفعتى ليس غير . فقل انى وقع فى السر ، وقل انى رجل لا يحفظ له من حياء ، فانت ان قلت ذاك لم تعد الحق ولم تؤذنى ، لانك لست كفرك من الناس ، ولانك لا تملك او لا تستطيع ان تؤذينى وأن تغت على حظى من الخلاعة والمجون . وانا على هذا كله ارى انى اقرب الى الخير من قوم لا يظهرون خلاعة ولا مجونا ، ولا يكشفون للناس ولا لانفسهم عما يظوون من سرائر بغيضة وبيات آثمة خبيثة . فانا اريد ان احتمل وحدى وزر خلاعتى وثقل مجونى ، وانا اعلم ان حساب ذاك بينى وبين ضميرى او بينى وبين الله ، ولكنى لا احب ان امسك امراتى فاحملها ثقل ما اقتراف من الآثام والسيئات ، واخونها وانا ازعم لها انى وى . ابنى لا علم انى ماخنتها منذ اتخذتها زوجا على كثرة ما انازعتنى نفسى الى الخيانة ، ومن يدرى ! لعل حظى من الحياء امام نفسى اكثر مما تظن . ومن يدرى ! لعل حظى من هذه الاخلاق الاخرى التى تعصم الرجل من الخلاعة والمجون اكثر مما تظن ايضا . وانى لاقيس نفسى الى صاحبك هذا الشيخ بظهوره بالاجازة التى تجعله من علماء الدين وتضمن له اجرا وسعيه فى الحياة ويمكنه من التمسك على نفسه ، حتى اقدم على ما تعلم وما لا تعلم من .

والخطايا والخصال التي لاتلائم علما ولا دينيا ولا خلقا ، فهو يفرق في المجون والاثم الى اذنيه حين تمكنه الفرصة ، فان لم يواته دعاءها واتخذ اليها الوسائل والاسباب . وهو في الوقت نفسه يخطب فتاة كريمة من أسرة كريمة ويظهر لهذه الفتاة البريئة وأسرتها انه اطهر الناس سيرة واعفهم لسانا وقلبا ويذا . وهو في الوقت نفسه يتكلف الوقار والاحتشام ويظهر الايمان والنسك ، ولا يكاد المؤذن يتم أذانه حتى يكون في المسجد قد سبق الى الصف الاول ، ولا تراه في مجلس من المجالس العامة ولا في ناد من الاندية الا في يده سبحة يعبث بها ، او كتاب من كتب العلم او الدين ينظر فيه او ينصرف من النظر فيه وكأنه قد اكره على هذا الانصراف اكرها . انا ياسيدي خير من هذا الشيخ في نفسي ، وخير منه في نفسك ، وخير منه عند الله

قلت ضاحكا : اما انك خير من هذا الشيخ في نفسك وفي نفسي فهذا شيء ليس فيه شك ، واما انك خير منه عند الله فالله وحده يعلم هذا . وما اري الا ان كليكما شر من صاحبه . وما اري ان الوقاحة في الائم خير من النفاق ، ولا ان انفاق في الائم خير من الوقاحة ، انما امركما كحماري العبادي قيل له ايهما شر ؟ فقال : هذا ثم هذا .

قال وقد ارسل من فمه ضحكة ملأت القهوة ، وما اشك في انها لفتت الينا من كان فيها من الناس : ليس هذان الحماران سواء ياسيدي ، بل ان بينهما شيئا من الاختلاف . فاما احدهما فقد ينفق النهار لا يذوق طعاما وقد يارق الليل لا يذوق نوما ، حتى اذا استقبل الصبح وادركه الضعف واضناه الارق والتفكير استعان على الضعف والضعف بأكواب من الشاي يحسوها هادئار فيقا ، ثم يخوض معك في احاديث العلم والدين ، ويجادل في الاخلاق وفلسفة الاخلاق ، فهو حمار مثقف متحضر ، ان جاز للحمير ان تأخذ بحظ من ثقافة وحضارة . ولما الآخر فهو الحمار الذي ذكره القرآن ، يحمل الاسفار

ويشقى بثقلها ولا يعى ولا يفقه مما فيها شيئاً . ولو قد رأيت
منذ حين فى هذا المكان الذى ثم يرحله بعد لوليت منه فراراً
ولمئت منه رعباً ، اذا لرأيت حيواناً قد أقبل على طعامه من
الفول والبصل كما يقبل الحمار على طعامه من اليابس والاخضر ،
وهو يلتهم الفول التهاماً ، ويقضم البصل قضمًا ، وبين
يديه هذا الغلام الذى لا يزال معه انى الآن يأكل متحفلاً مستخدماً
من نفسه ومن مكانه بين يدي هذا الشيخ امام الناس . ثم
يفرغان من الالتهام والقضم ، ومن الازدراء والخضم ، ويحمل
اليهما الشاى ، فاذا الغلام يتناوله فى اناة ومهمل ، واذا
شيخك الحمار او حمارك الشيخ لا يكاد يملا القدح حتى يلقيه فى
جوفه . القاء كما يصب الماء من النوافذ على الارض صبا . واقسم
لقد رأيت منذ حين يقبل على هذه القهوة ضعيفا مكدودا ويسعى الى
مجلسه منها بطيئاً متهاكاً ، ثم يلقي نفسه على كرسیه القاء ،
كأنه عجز عن أن يمسك جسمه على ما ينبغى له من اعتدال القامة ،
فخر على كرسیه كما ينقض البناء . أقسم لقد رأيت يقبل ثم يسعى
ثم ينهار على هذه الحال ، فما شككت فى أنه أنفق ليله أو أكثر
ليله فى غير النوم وفى غير ما يارق له النساك والصالحون ،
وفى غير ما يسهر له العلماء والمفكرون ، وفى غير ما أنفقت
فيه ليلي من ألم وندم ومن هيام واضطراب فى الارض . ثم لم يك
يستقر ويستقر غلامه هذا بين يديه ، حتى أقبل الخادم فسمع
منهما كلاماً ثم انصرف ، وأقبل صاحب الفول يحمل آنيته وطعامه
وحزماً من البصل . وانكب الشيخ على ما قدم اليه لا يعقل
ولا يعى ولا يستأنى ولا يكاد ي مضغ أو يذوق ، انما هى يد
تنقل الطعام من مكانه على المائدة لتلقيه فى مكانه الاخر من جوفه .
حتى اذا امتلأ واكتظ وحاول أن يطقى . نار الهضم بهذه الاقداح
من الشاى الى القاما فى حلقه القاء ، تهالك على كرسیه كما
أراه الان لا قائماً ولا يقظان ، وانما هو شئ بين ذلك . وغلامه
جالس بين يديه يرمقه فى خزي وازدراء ثم ينظر فى صحيفته

ويشغلي نفسه عنه بالقراءة . والله يعلم الى أين يذهبان اذا قاما . والله يعلم فيم ينفق شيخك الحمار أو حمارك الشيخ نهاره . وأكبر الظن انه سيكذب ويمكر ويكيد ، ويسعى بين الناس بالشمر ، ويظهر الطاعة والعبادة بين ذلك ، فيؤدي الصلوات في أوقاتها ، ويضع جبهته حيث يريد الله لها أن توضع في هذا المسجد أو ذاك من المساجد التي تلقاه في بعض الطريق . كلا ! ليس الحماران سواء ياسيدي . أحدهما حمار متحضر مثقف ، والاخر حمار وحشي غليظ .

قلت وقد أغرقت في الضحك : هما حماران على كل حال ، ولكن صورة الحمار الوحشي تعجبني من الناحية الفنية قال : كل يصف حماره الوحشي كما يستطيع ، فما أظنك تريدني على أن أصفه كما كان الشعراء الاقدمون يصفون حميرهم الوحشية . وانك لتعلم أن أولئك الشعراء كانوا يرون حمرا تمشي على أربع ، أما نحن فنرى حمرا تمشي على رجلين . ثم صلب لنفسه قدحا من الشاي وأخذ يدير الملعقة فيه مستأنيا بطينا كأنما يأتي عملا آليا على حين قد شردت نفسه وفارقت الى مكان بعيد . وسكت عنه حينما فلم يتحدث ، ومضيت في الصمت فمضى فيه ومضت يده تدير الملعقة في القدح . حتى اذا أنكرت منه ذلك قلت له : ويحك ! ماذا تصنع وفيم تفكر ؟ قال : ياسيدي ان الحمير لا تفكر ، ثم ألقى الملعقة من يده وأخذ يحسو الشاي مصمما على الصمت وما ضيافيه . قلت : فاني أغضبتك حين شبهتك مع صاحبك بحماري العبادي ، فلا بأس عليك ، فواحدة بواحدة . لقد أغضبتني أول من أمس ثم اعتذرت لي ، وقد أغضبتك الان وأنا أعتذر اليك ، فعد الى مثل ما كنا فيه من الحديث .

قال : ما أغضبتني وما أكره أن أكون حمرا مادمت أعرف أنني حمار مثقف متحضر . فارتفع انقما في السماء وانحناء الجسم الى الارض والمشي على رجلين أو على أربع . كل ذلك لا يعنيني مادمت أجد اللذة والالهم في الحس والشعور والتقدير . أتدري ماذا كنت أصنع

حين أقبلت على آنفا ؟ • قلت لا • قال : فاني كنت أتحدث الى امرأتى فأطلت الحديث ، ثم أحسست انها لن تفهم من حديثي شيئا ، فطويت كتابي وتحدثت الى أبي في الاسطر القصيرة التي أقرأها عليك • ثم أخذ يقرأ :
« والدى العزيز »

إذا انتهى اليك كتابي هذا ، فستجد معه صك الطلاق ، فاني قد طلقت حميدة أمس على كره مني : لاني لا أدري كم يطول مقامي في أوربا ، وما أحب أن أفرض عليها حياة معلقة مع أنها لم تبجن ذنبا ولم تقترف اثما • وما لها تتعذب لاني أريد أن أعلم ، وتشقى لاني أكلف بالاعتراب ! • واني لمحزون لهذا الطلاق الذي أقدمت عليه ، ولكن لا بد مما ليس منه بد • فقرأ عليها تحيتي وعذري واستوصي بها وبأهلها خيرا • والسلام عليك ورحمة الله • »

ثم قال : وكذلك ياسيدي أديت في هذا اللفظ القصير السخيف معان لا تتسع لها الكتب الطوال ، لان الله قد أراد ألا يفهم الناس عن الناس ، وأن تظل بينهم الحجب الصفاق ، فهم يعيشون ويتعاملون ويعتقدون أنهم يعيشون معا وأنهم يتعاونون على الحياة وان لكل واحد منهم ليرجا من العاج يعيش فيه لا يظهر عليه أحد ولا يظهر هو منه على انسان •

قلت : وكتابك الى امرأتك ماذا صنعت به ؟ قال : طويته وماذا تريد ان اصنع به الا أن أمزقه وارميه في النار • قلت : فالقه الى ان لم تجد بذلك بأسا • قال : وأى بأس ان تاتهمه أنت أو ان تلتهمه النار ! سواء على ، ولكن لا تطلب الى أن أقرأ عليك هذا الكتاب ، فخذوا ليقرأه عليك غلامك الاسود متى شئت • أما أنا فاني متعب مكدود ، وأظن أن قد آن لى ان انصرف عنك ، فليس بد أن يخاو هذا البيت مما فيه من الاثاث • قلت : ستنصرف عني ، وستخلي بيتك من اثاثه ولكن بعد ان تستريح فانفق معى بقية اليوم وافرغ لامرك اذا كان الفد وقيم فلتنصرف الى بيتي ، فلعك تظفر فيه ببعض الراحة •

ثم نهضنا متشاقلين ، وخرجنا متباطئين . فلما جاوزنا الباب
قال في ضحك خفيف : مازال حمارك الشيخ أو شيخك الحمار
ل ركنه يقظان كالنائم ، ونائم كاليقظان .

١١

يوفيوني ...

لم يؤوني البيت منذ فارقتك ظهر أمس يا حميدتى العزيزة .
ومع ذلك فقد قضيت فيه وقتي كله منذ انصرف بك القطار عن
القاهرة الى هذا الوقت الذي اكتب اليك فيه وقد كاد يرتفع
الضحى . ذلك ان في نفسى صورة لا تريد ولا اريد ان تفارقنى ،
وهى صورتك قبل الرحيل وقد انتحيت ناحية من غرفتنا ووقفت
واجهمة لاتنطقين . ثم لم اكذأ قبل عليك وادعو باسمك حتى رفعت
الى عينا مثقلة لا تريد ان ترتفع . ثم انهمرت دموعك انهمارا صامتا
لا يتبعه ما يتبع دموع النساء عادة من زفير وشهيق .
وقد نظرت اليك وانت فى هذه الحال ساعة لم اقل لك شيئا ولم
اقل لنفسي شيئا ، وانما اوجمت كما كنت واجمة ، ثم انهمرت
دموعى كما انهمرت دموعك ، ثم قام كل منا فى مكانه لحظات لا ادرى
اكانت طويلا أم قصارا ، ولكنها كانت لحظات صامت عميق
يغمره دمع غزير . ثم سعيت اليك فى رفق فضممتك الى
وطوقتك بذراعى ، فلم تقولى شيئا وانما اسندت رأسك الى
كتفى وظل دمعك ينهمر سخينا غزيرا ثم اخذت رأسك بين يدي .
ولثمت عينيك كأنما اريد ان اشرب دمعك شربا ، ثم قبلت
جبهتك ، وخديك ، ثم ضممتك الى مرة اخرى فقبلتنى ثم افترقنا ومضى
كل منا فى الاستعداد للرحيل .

لم تفارقنى هذه الصورة أو هذه الصور ولا اريد ان تفارقنى .
فمازلت منذ أمس انظر اليك واجمة وارى دموعك تنهمر ثم
راك بين ذراعى تدرفين دموعك على كتفى ، ثم ارانى اقبلك واراك
تقبلينى ، ثم اراك تسعين فى الغرفة ذاهبة جائية تهيين متاعك

في صمت متصل لا يقطعه شيء حتى ولا زفرة من الزفرات .
ولقد اضطربت المدينة في بقية النهار وشطرا من الليل ولقيت
كثيرا من الناس فتحدثت اليهم وسمعت منهم ، وخيل الى انهم
يفهمونني وخيل الى اني افهمهم ، وخيل اليهم في اكبر الظن اني كنت
كما تعودوا أن يروني دائما ثرثارا ساخرا متصل العبث والمزاج ولكن
الله يشهد ما خلصت لواحد منهم ولا خلص لي واحد منهم ، وانما
كنت امنحهم بعض نفسي او كنت امنحهم ايسر ما يستطيع الرجل أن
يمنح من نفسه . وكنت اري ان هذا يكفي لافهم عنهم وليفهموا
عني ، وكانت خلاصة نفسي مماوءة بك منصرفه الى تمؤها هذه
الصورة وتمتزج بها امتزاجا حتى لكانها هي . ولست ادري :
اتعرفين اني كثير التفكير والتحليل ، وانى لا احس شيئا ولا اجده الا
فكرت فيه وحاولت تحليله وتعليقه ! ولكن كيف تعرفين ذلك
او تقدرينه ولم يكن بينك وبينى الا ايسر ما يكون من الصلات بين
الازواج ، فانت لا تعرفين من امري الا اقله وايسره ، وانا
لا يفوتني من امرك الا اقله وايسره . لست ادري اتعرفين اني كثير
التفكير والتحليل ، ولكن حين رأيت الحاح هذه الصور على
ولزومها لنفسي وامتلاكها لقلبي وامتلاء خواطري بها واحسست
ما كان بينها وبين نفسي من الامتزاج ، اخذت افكر فيما
يقوله بعض الناس من اصحاب التصوف حين يتحدثون عن
امتزاج الطرف بالمظروف والعقل بالمعقول والفكر بموضوع التفكير .
ولكن فيما اتحدث اليك يا حميدة البائسة ، انى لا قص عليك سخفا
لا يغنى ولا يستطيع ان يبلغ سمعك ولا ان يستقر فيه ولا ان يتجاوزه
الى قلبك الحزين . وما انت وما هذا الكلام ! وما انا والتحدث به
اليك ! وانما اريد ان ارسل اليك كتسابا كله حب وكله بر وكله
حنان . فاین هذا مما اخذت أهذى به وأخوض فيه !. أفكتب
علينا ألا تلتقى نفسانا فيطول بينهما اللقاء ؟ أفكتب علينا ألا
يكون بيننا هذا الامتزاج الحلو الذي لا يخفى معه من احدا شيئا

على صاحبه لامن حسه حين بحس ، ولا من شعوره حين يشعر ، ولا من تفكيره حين يفكر ؟ أذكتب علينا ان نلتقى اجسامنا وألا نلتقى نفوسنا الا لحظات قصارا في نظرات قصار سراع كأنما نختلسها اختلاسا ؟ ! ولكن اتفهمين عنى ما اقول ؟ اتحسين ما أحس ؟ اتجدين ما اجد ؟ انى لم اتعود ان اتحدث اليك مثل هذا الحديث وانما تعودت ألا اتحدث اليك الا قليلا ، والا اتحدث اليك الا فى ايسر الاشياء وادناها الى السخف واشدها اتصياالا بشئون حياتنا المادية مما يمس شئون البيت . ما اذكر انى تحدثت اليك فى الحب ، وما اعلم انك تحدثت الى فيه . كنت ارى انك لن تفهمى عنى اذا تحدثت اليك بما اجد . وكان الحياء يمنعك من ان تتحدثنى الى ببعض ما تجدين . وكنا نكتفى بالنظرات الحادة القصيرة يملؤها الحنان . وكنا نكتفى بحلاوة الصوت ولين الالفاظ وعذوبة النبرات حين نتحدث فى أى شأن من الشئون ليشعر كل منا بما يجد من الحب والعطف ومن الحنو والاخلاص وكانت حياتنا على هذا النحو صريحة واضحة فى شئونها المادية وكانت رمزا اوشينا اشد غموضا من الرمز فيما يمس شئون القلب والنفس والضمير . ولعلنا لم نشعر قط بأن لنا شيئا من حياة القلب والنفس والضمير ، فلم نفكر قط فى تحليل ما بيننا من صلة او فى تأويله وتعليقه . ومتى كنا نستطيع ان نفكر فى ذلك وقد كنت مشغولا عندك بالعمل والكتاب ، وكنت مشغولة عنى بالبيت . وكنا لالتقى الا لنتحدث فيما يتحدث فيه الأزواج من الامور غير ذات الخطر التى لا تمس قابلا ولا نفسا ولا ضميرا . ماذا اقول ! والى من اكتب ؟ والى من اسوق هذا الحديث ؟ أترين انك تفهمين هذا الكلام ؟ ما أظن ! فكيف تفهمينه وانت تسمعينه لأول مرة ! ومع ذلك فانى شديد الحاجة الى أن اتحدث اليك كما تعودت ان اتحدث الى نفسى بهذا الاسلوب العسير الدقيق ، وعلى هذا النحو الذى لا ينقصه العوج ولا الالتواء . ومع ذلك فقد كان يسيرا كل اليسر هذا المعنى الذى اردت ان

أتحدث به اليك حين بدأت هذا الكتاب ، فقد كنت أريد أن أنبئك بأننى لم أستطع أن أستقر فى بيتنا بعد فراقك ، لأنى وجدت فيه وحشة نفتنى عنه وجعلت مقامى فيه مستحيلا ، فهمت فى المدينة وتلمست السلاوة عند الاصدقاء ببقية النهار وطول الليل . ولم أستطع مع هذا أن أنسى البيت أو أنسى غرفتنا فيه أو أنسى صورتك فى هذه الغرفة طول هذا الوقت رغم الاضطراب فى الارض والاختلاف الى الاندية والاتصال بالاصدقاء .

هذا ما كنت اريد ان اتحدث به اليك حين اخذت أسطر هذا الكتاب ، فهو يسير سهل كما قرين ، ولكنى مع ذلك لم اكذأخذ فيه حتى تعقد والتوى بى أوالتوى على ، ودفعنى الى انحاء من التفكير ومذاهب من القول بعدت بى عن الفاية ولم أخلص منها ، ولم أعد الى ماكنت أريد الا بعد مشقة وعناء . وكذلك أنا فى حياتى الشاعرة مضطرب ملنو كثير الاستطراد ، لا أفكر فى شيء الا أثار لى أشياء ، ولا آخذ فى مذهب الا التوى بى الى مذاهب تشق شقا من نواحيه ، فأنا يا من مرة وأياسر أخرى ، وربما نسيت الطريق التى أخذت فيها أول الامر ، ومضيت فى الاستطراد الى غير أمد .

وكذلك أنا فى حياتى العملية لا آتى أمرا الا أثار لى أمور وفتح لى أبوابا من النشاط مختلفة الجهات بابا بابا . ولعلنى ألج واحدا منها فلا أخرج منه ، وإنما تفتح لى أبواب أخرى . فأنا مضطرب حين أفكر ، وأنا مضطرب حين أعمل ، وأنا مضطرب حين أقول ، والغريب أنى أستطيع مع هذا الاضطراب كله أن أعرف لحياتى وحدة وان اتبين لها طريقا متشابهة تنتهى أو تريد أن تنتهى الى غاية مقاربة . ماذا أقول ! هاأنذا قد بعدت عنك وعما أكتب اليك من اجله ، وفرغت لنفسى أو شغلت بها ، فأنا أدرسها وأسرف فى درسها وتحليلها ، وان كنت أعلم أن لدى من الوقت ما يكفى للنظر فى المرأة ولارى هذه النفس التى احب وأكره من رايها . وليس لدى من الوقت ما يسمح لى بالتحدث اليك فيما اريد الا القليل . ومن يدري ! نعل

نفسى غير الشاعرة التى تجوز بى عن القصد وتنحرف بى عن الطريق
المستقيمة لانها تشفق من المضى الى الغاية التى من اجلها اكتب
تشفق عليك وتشفق على أيضا ، فان الامر الذى أريد أن اتحدث
إليك فيه ثقیل خطير ، ما أحسب انك تقوين على استماع حديثى
فيه ، وما أشك فى انى محتاج الى شىء كثير جدا من الشجاعة والجلد
لأبضى فى هذا الحديث . وكذلك ترفق بنفسى غير الشاعرة بنفسى
الشاعرة ، وتحمىها من بعض ما تكره وترید أن تؤخر عنها العذاب .
فما أشد سلطان الاثرة علينا ! وما أشد استئثار الضعف بنفوسنا
وما أشد امتلاك الخوف لقلوبنا ولا سيما حين نزعماننا أقوياء وحين
فريد أن نظهر الناس على أننا أقوياء ! ولولا ذلك لما تكلفت هذا
الكلام الطويل ، ولما دفعت الى هذا القول الملتوى حين أحاول أن أنبئك
بنبأ مهما يكن ثقیلا خطيرا فهو واضح لا غموض فيه ، ولكن
استحى منك واستحى من نفسى واشفق من الصراحة فأتقيها
بالفلسفة والتواء الكلام . فلا تشجع اذا ولتتشجعى أنت
أيضا ، ولا قل اذا ولتسمعى أنت . ما أريد أن أقول ! ان القلم ليضطرب
فى يدي ، وان يدي لتجمد فلا تكاد تتحرك ، وانى لمحتاج الى أن أكفه
من الكتابة حين لا استرد القوة والجرأة والنشاط . وهأنذا
أستأنف الكتابة وأدافع عن نفسى دفاعا شديدا لأحول بينها وبين
الاستطراد ، ولا كرهها على المضى فيما تلمس الفراغ منه ، ولا حملها
على أن تقسو عليك وعلى فتلقى إليك بهذا النبأ وهو اننا لن نلتقى
بعد اليوم .

أف ! لقد أقيت العباء وتخففت من الثقل ، واستطعت أن أتنفس
فى غير حرج ولا ضيق ، وأحسست كأنى أصبحت طليقا حرا وقد كنت
مقيدا مغلولاً ، لا شىء الا لانى أقيت إليك هذا النبأ بعد ان
كنت أخرج من القائه ، وأصبحت ملزما أن أعطيه لك وان أفسره
وان ارد عن نفسى ما سيثور فى قلبك من الشبهات . وانا اعلم انك
لن تصدقينى ولن تؤمنى لى وان تقبلى شيئا مما أقول . ولكنى أقسم
مع ذلك ما طلقتك عن قلبى ولا فارقتك عن زهد فىك أو رغبة عنك أو نفوذاً

هناك . واني أقسم ما أحبتك قط كما أحبك الآن ، وما آثرتك قط كما
 آثرتك الآن ، وما عرفت سلطانك على ويدك عندي كما عرفتكما
 الآن . بل أقسم اني لاحس كأنما اشطر قلبي شطرين ، فأحفظ
 شطره في صدري وارسل بشطره الآخر الى مكان بعيد في اعماق
 الريف حيث لا يتاح لى أن القاه . بل أقسم ما طلقته الا حبا فيك
 واشارا لك وضنا بك على ما اكره . ولاكن صادقا كل الصدق . فان
 الضعف والعجز والخور ، كل هذه العيوب هي التي تدفعني الى أن
 افارقك اشد ما اكون لك حبا وأعظم ما اكون لك حبا وأعظم
 ما اكون عليك حرصا . لم استطع ان اوثرك على اوروبا فأبقى معك ،
 ولا استطعت ان اطمئن الى اني سأكون وفيا اذا عبرت البحر
 فأحتفظ بما بيننا من صلة الزواج . ولست أريد هذا الوفاء
 للخلق الذي يتحصل بالنفس ، فانا واثق بأنى قادر عليه ، بل انا
 واثق بانه سيعذبني وسيكلفني آلاما واسقاما . انما أريد الوفاء
 الكامل الشامل الذي يملك النفس كلها والقلب كله والضمير كله
 والجسم ايضا . اريد هذا الوفاء الذي لا يبيح شركة ولا توهمما
 للشركة ولا تفكيرا فيها . وانا آسف اشد الاسف محزون اشد
 الحزن ، لاني اعلم اني سأعرض للفتنة اذا عبرت البحر . وان
 بعض اللحظ سيمس قلبي ، وان بعض الجمال سيستهويني ، وان
 بعض الشر سيدفعني الى شىء من الغي . وما أحب ان اعرض
 بحبك ، استغفر الله ، بل ما أحب أن اعرض زواجنا للآثم والفساد ،
 لا استطيع ان اخفى عليك ما قد اقترف من اثم . لاني لم اعودك
 ولم اعود نفسي الكذب . ولا استطيع ان اعترف لك بما قد
 اقترف من اثم ، لاني ان فعلت آذيتك في غير حق وفي غير جدوى ،
 وعرضت ما بيننا للفساد . وانا ان كذبت عليك أهنت نفسي بالكذب ،
 وان اعترفت لك أهنت نفسي بالاعتراف . واذا فمالي لا استقبل
 الحياة شجاعا جريئا مستمتعا بلذاتها محتملا لتبعاتها !! كم كنت
 اريد ان اكون قويا قادرا على ان اقاوم الشر واعاف الاثم . واحتفظ
 بقلبي طاهرا نقيًا ، وبجسمي عفيفا نظيفا ، وأردتهما اليك بعه

العودة كما ارتحلت بهما عنك اول الرحيل ، ولكنى عاجز عن ذلك ، او عاجز عن الاطمئنان الى ذلك . والغريب ان من الممكن ان أعبر بحر الغواية ولا اغوى ، وان اقضى اعوام الغواية نقيا طاهر القلب ، وان اكون قد شققت على نفسى بهذا الحرج وحملتها ماكنت استطيع ألا أحملها . هذا ممكن ولعله ان يكون . ولكنى لا اکتفى بالممكن ولا اطمئن الى الظن ، انما اريد الثقة ولا سبيل اليها ، واطمع فى اليقين ولا امل فيه . ولهذا اتكلف ما اتكلف واقدم على هذا الامر العظيم .

أترين انك فهمت عنى ؟ ما اظن ! ومتى فهم العقلاء عن المجانين ؟ أترين انك صدقتنى ؟ ما اظن ! متى صدق الناس مثل هذا الهذيان ؟ يا للحزن ويا اللاسى ! لمن اكتب هذا الكتاب والى من اسوق هذا الحديث ! انك ان قرأته فلن تفهميه ، وان فهمته فلن تقبله . فكيف وانت ان تقرئيه ، انى لنافل ذاهل ، انى لمدله مجنون . لقد أنسيت انك لا تقرئين ولا تكتبين فمن الذى سيقرا عليك هذا الكتاب ويفسره لك من اهل الريف ؟ . كلا لن أتمه ولن ارسله اليك ولن تعلمى من امرى الا انى رجل قاس غليظ مسرف فى كفر النعمة وجحود الجميل ! متبع الاهواء والشهوات لا اتخرج من شىء ولا اعصرف لجموح نفسى غاية تنتهى اليها او حدا تقف عنده . سيسقط النبا فى اسرتنا كما تسقط الصاعقة ، وسيلقونه اليك فى عنف او فى لين ، وستجزعين وتظهرين التجلد ، وسيبكى قلبك وتكلف عيناك الجمود . ثم ستمر الايام ، وستحرصين على ان يصل اليك بعض انبأى دون ان يعرف منك هذا الحرص . ثم سيأتى الخاطبون . كلا ! لا اريد ان امضى الى أبعد من هذا الحد فى التفكير ، فما ارى انى اقوى على هذا المضى . لقد ابطأ على صاحبى وكلفنى انتظارا طويلا . ليته يقبل فيخرجنى من هذا العناء .

قرأ غلامى الاسود الصغير هذا كتاب بعد ان انصرف عنى صاحبى فلم اكده افرغ من قراءته حتى رثيت له ، وسألت نفسى

كيف يكون موقع هذا الكتاب من حميدة البائسة لو أنها استطاعت ان تقرأه وتظهر على ما فيه !

١٢

يوليو في ...

لم تفارقني صورتها بعد ايها الصديق العزيز ، ومع ذلك فقد مضت ايام وايام منذ انصرف بها القطار الى قريتها في الريف ، وحدثت بعد ذلك احداث واختلفت شئون ، فلقيت من نقيت وتحدثت الى من تحدثت اليه ، واقدمت من الامر على اليسير والخطير ، ثم كانت الرحلة وهبط بي القطار الى البحر ومضت بي السفينة الى ما وراء البحر ، وهانذا اكتب اليك في غرفة من غرفاتها . وشهد الله ما فارقتني صورتها اثناء هذا كله في لحظة ولا في يوم ولقد سألت نفسي منذ عهد بعيد عن خير ما يستطيع الصديق ان يتمناه للصديق . وسألت نفسي حين عرفتك فأحببتك ، وحين فارقتك فجزعت لفراقك ، عن خير ما يستطيع ان اتمناه لك ، وعرضت على نفسي اجوبة مختلفة لهذا السؤال كنت اطمئن الى بعضها حين اتم ادعه ، وكنت انصرف عن بعضها الاخر حين اتم اعود اليه . ولكن الحياة نفسها قد اجابت على هذا السؤال جوابا ما احسب اني سأتحول عنه . فخير ما اتمناه لك وخير ما اتمناه للصديق وخير ما اتمناه للعدو ان طابت نفسي واحببت للعدو خيرا ، هو ان يجنبك الله اسباب الندم ، ويعصمك من الاضطراب اليه والايغال فيه . فلست اعرف الما اشد ولا حزنا الدع ولا عذابا امض ولا شقاء مفسدا للحياة كهذا الذي يشيره الندم في نفس الرجل الذي يقدر من الامر ما يأتي وما يدع

واني لا قول لك هذا عن علم ، واتحدث به اليك عن تجربة . واي تجربة ! تجربة وددت لو اني تحملت كل ماذقت من الالم منذ عرفت الالم مرة واحدة ولم ادفع اليها . فيالها من منفص ماكر قادر يعرف كيف يلقاك جهرة فيقطع عليك كل امل ، وياخذ

عليك كل طريق ، ويردك الى حزن مظلم متكاثف الظلمة لا منفذ للنور منه ، فاذا ألح عليك يالهم والحزن وبالتنقيص المتصل والكدر المتقطع حتى انتهى بك او كاد ينتهي بك الى اليأس المهلك ، جلا عنك غمراته ، ونفس عن قلبك وعقلك بعض الشيء ، وخيل اليك انك قد رددت الى الفضاء الواسع والهواء الطلق والضوء المشرق . ولكنك لا تكاد تذوق الراحة وتطمئن الى بعض الامن ، حتى يمسك هذا الشيطان الخفى مساً رقيقاً ولكنه عنيف ، لينا ولكنه يبلغ غاية القسوة . يخز نفسك بين حين وحين وخزاً يسيراً ضئيلاً خفيفاً لا يكاد يحس ، ولكنه يذكر بمكانه وينبهك الى ان في هذا الهواء الطلق راحة لجسمك ان تنسمته مطمئناً فارغ البال . ولكن يجب عليك ألا تغف عن ولا يفرغ بالك ، فهو هنا قريب وان ظننته بعيداً ، وانه دان منك كل الدنو وان حسبتة نائياً عنك كل النأي . فان كنت في شك من ذلك فانظر واشعر وسل نفسك عن هذا الوجز الخفيف الذي تجده ، ماهو او من اين يأتيك ؟ فستعلم انه مس هذا الشيطان والم هذا الندم الذي أن رفه عليك فانه لم ينسك ، ولا ينبغي له ولا ينبغي لك ان تظن انه سينساك .

نعم ! وينبهك الى انك قد تجدد اللذة في الحديث مع من يحسن معه الحديث ، وفي التفكير فيما يحسن فيه التفكير ، ولكنه كفيل أن ينقص عليك لذة الحديث والتفكير بوخزة من هذه الوخزات الرفيعة الضئيلة التي يمسك بها في ناحية من نفسك ، فاذا انت تقطع الحديث فجأة ، وتنصرف عن التفكير فجأة كأنما ذكرت شيئاً كنت تنساه .

نعم ! وينبهك الى انك قد تجدد اللذة والمتاع في قراءة الكتاب القيم الذي يغذى عقلك وحسبك وشهورك بما شئت من علم وادب وفن ، والذي تود او تفنى فيه فناء وتمتزع به امتزاجاً وتنسى لقراءته الزمان والمكان وما يشتمل عليه الزمان والمكان ، ولكنه خليق

ان يحول بينك وبين ماتريد من هذا ، وان يفسد ماتجد من اذة ومتاع بوخزة من هذه الوخزات التي يمس بها نفسك في ناحية من نواحيها ، فاذا يدك تتحرك حركة آلية فتضع الكتاب ، واذا رأسك يتحرك حركة آلية فيرتفع الى السماء ، واذا انت واجسم قد انسيت ماكنت فيه ، واشتمل عليك ذهول غامض واضح معاً . فيه انصراف عن كل شيء ، وفيه شعور بهذا الشيطان الذي يفسد عليك كل شيء . وقد يكون هذا الشيطان اخفى من ذلك مكر او اذق حيلة ، فهو لا يصرفك عن الكتاب ولا يلقى من يدك ولا يحول عنه عينيك . ولكنه يسايرك في القراءة كأنه الرفيق ، ويلقى أثناء ذلك كلمات وخواطر لاصلة بينها وبين ماتقرأ ، فاذا هي تختلط بماتقرأ ، واذا هي تحول نفسك عما في الكتاب ، واذا انت تقرأ بعينيك دون ان يصل شيء مما تقرأه الى نفسك .

وقد يغلو هذا الشيطان في المكربك والكيد لك ، فلا يسايرك في القراءة ، ولا يلقى في نفسك كلمات ولا خواطر ، ولا يصرفك عن الكتاب وانما يصرف الكتاب عنك صرفاً . يثير بين الحروف والكلمات والسطور صوراً ومظاهر وألواناً من الخيال ، تراها وانت كاره لرؤيتها ، وتحاول ان تخلص منها الى هذه الحروف والكلمات والسطور فلا تجد الى ذلك سبيلاً . فالكتاب بين يديك ولكنه بعيد عنك . والكلمات امام عينيك ولكنها تفر منك . هي تقرأ وانت تطلبها ، وهذا الشيطان يلقي بينها وبينك غباراً من هذه الصور والمظاهر والخيالات . وقد يزدريك هذا الشيطان فلا يتكلف في تعذيبك جهداً ولا عناءً ، وانما يداعبك في رفق ويلاعبك في استهزاء . فأنت في حديثك او في تفكيرك او في قراءتك ، واذا صورة ضئيلة يسيرة رقيقة تتراءى لك فتمرين نفسك وبين ماتريد ان تقول او تفكر او تقرأ ثم لا تلبث ان تنجلي عنك في سرعة البرق الخاطف ، فاذا انت تعود الى ما كنت تقول وما كنت تفكر وما كنت تقرأ ، ثم ما تزال بك مقبلة مدبرة ، وسانحة بارحة ، وملمة منصرفة ، حتى يجهدك الشيطان ولم يصبه الجهد ،

ويشقى عليك ولم تدركه المشقة ، ويؤنسك من الحديث والتفكير والقراءة وهو جالس غير بعيد ، ينظر اليك في احتقار وازدراء ، وفي سخريّة واستهزاء .

كل هذا وجدته أيها الصديق العزيز منذ مضى بها القطار الى قريتها في الريف . ومازلت أجده الآن والسفينة تمضي بي الى فرنسا متكلفة مع البحر فنونا من السير ، تجاهده جهادا عنيفاحين يهيج وتضطرب به أمواجه وتصفبه الريح ، وتداعبه دعابة حلوة حين يهدأ ويستقر ويعبت على سطحه النسيم . وكم منيت نفسي منذ اخذت اتيها لهذه الرحلة ان أجده هذه اللذات المتباينة التي يجدها المسافرون فيما يكون بين سفينة والبحر من جد وهزل ، ومن خصام ووثام . ولكن هذا الشيطان قد حال بيني وبين ما كنت اتمنى من ذلك ، فأفسده على افسادا ونقصه على تنقيصا . ولو انه القى بيني وبين ما اريد من ذلك حجابا صفاقا واستارا كشافا لهان الامر ولكان اليأس منه ريحاً ، ولكنه يشرف بي على اللذة اشرافا ويمعن بي فيها معاناً ، ثم يقطع اسبابها قطعاً ، ويصدني عنها أو يصدّها عني اشد ما اكون كلفاً بها واندفاعاً اليها واستعداداً لاجتناء ماهيات لي من ثمرات .

جنبك الله الندم ايها الصديق ، وعصمك من اثقاله فانها لا تحتمل ، ومن آلامه فانها لا تطاق .

ولست مع هذا كله مبغضاً للشيطان الندم . هذا الذي يعذبني ، ولا منكراً عليه ، فأنا اعطى الحق من نفسي واقبل راضياً او كارهاً ما ليس من قبوله بد . فأنا قد اقترفت الاثم ، ولا بد من ان احتمل اثقاله واتجرع آلامه . الاثم عندي شجرة لا بد من ان تؤتي ثمرها اذا صادفت من الخصب ما يمكنها من النمو والاثمار . وانما تصادف الخصب واسباب النمو والاثمار حين تصادف نفساً كريمة حرة دفيقة الحس ، قوية الشهور . والندم عندي آية من آيات الكرم ، وعلامة من علامات السمو ، ومظهر من مظاهر الارتفاع عن اللسيات ، ودليل من ادلة خصب النفس

وجوده اصلها واستعدادها للخير وحسن البلاء فيه . وانى لا بفض
النفوس المجذبة التى لاتعرف الما ولا ندما ، والتى تموت فيها اشجار
الآثام والخطايا ، كما يموت النبات فى الصحراء المحرقة
المهلكة .

وانى لا بفض هذه النفوس ذات الخصب السيىء الردىء التى
تفرس فيها اشجار الخطيئة والآثم ، فلا تموت ولا تجف اعوادها
وانما تثمر خطايا وآثاما .

أترى أيها الصديق انى مفرو ومسرف فى الفرور ! اتهمزى عن الآثم
والندم بتزكية نفسى ، واكاد لا اكره ما اقترف من الآثم لانه يشعرنى
بأنى كريم النفس نبيل الطبع نقى الضمير ! ولكن لاتنكر على هذا
الفرور ، ولاتلمنى فيما ألتمس لنفسي البائسة من ضروب
التسليية وألوان العزاء . فلو لا هذا الفرور لاهلكنى ما أجد من
الحزن ، ولقضى على ما أحسن من الندم ، ولدفعت الى اليأس المهلك
دفعاً .

والى لا عجب كيف انجلبت عنى غمرة الامل وصرفت صرفاً عن
هذه الخيالات العلو التى كنت اخلقها لنفسي خلقاً ، وأستعين
بها على ما كنت مقدماً عليه من الطلاق حين كنت اتصور الحياة
الجديدة فى فرنسا . وما تدخلى من لذات مختلفة لاتفنى . فأنا
احاول الآن ان اتصور هذا البلد الذى انا مقبل عليه ، فلا ارى الا
هذا البلد الذى انا منصرف عنه .

أحاول ان اتمثل السربون فلا ارى الا جامعتكم المصرية . واحاول
ان اتمثل رفاقى من الفرنسيين فلا ارى غيرك وغير اصحابك
الشيوخ . ثم احاول ان اتمثل جمال باريس فلا ارى الا القاهرة
واحاول آخر الامر ان اضلل نفسي واعلالها وامنيها الامانى الآثمة ،
احاول ان اتمثل المرأة الباريسية فلا ارى الا حميدة قائمة امامى
كهيئتها يوم كانت تستعد للرحيل فى بكاء متصل وصمت عميق .

مهما أفعل لانظر الى امام فأنا مكره على ان انظر الى وراء .
فلا تلمنى اذن حين أعجز عن أن اخرج من نفسي . وعن ان التمس

العزاء الا فيها ، فانا اتلهى بهذا الغرور عن هذه الاموال المنكرة
التي تاخذنى من كل مكان وتسعى الى من كل صوب . ومالى لآلم
ولا اندم ولا أتجشسم من ذلك أهوالا وقد اقترفت اثما عظيما
حقا ، لقد كنت أخافك أيها الصديق فلم اصور لك من هذا الاثم : اثم
الطلاق ، الا أيسره وأهونه ، لم اصور الا ما فيه من ظلم البرى
والاعتداء على من لم يستحق الاعتداء ، وقد لقيت منك مع ذلك
لوما شديدا وانكارا عنيفا ، ونبوا كاد يفسد ما بيننا من الود ، فكيف
لو صورت لك حقيقة الاثم الذى اقترفته ! وكيف لو كشفت لك
عن وجهه الذى أخففته عليك .

لقد أفلت منك أيها الصديق . ولقد بلغ الكتاب أجله ، وقطعت
الاسباب بين حميدة وبينى ، وبعدت بى الدار . فلا امل الآن فى
اصلاح ما فسد ، ولا خوف الان من أن تصدنى عن الرحيل ، الآن
استطيع أن أظهر لك على نفسى كلها . . . والآن أستطيع أن أنبئك باثمى
كله ، وأنا أعلم انك ستحتقرنى وستزدرينى . وما يعينى من
ذلك وأنا أحتقر نفسى وأزدريها !! فلن يصرفنى احتقارك ايساى
وازدراؤك لى ، ولن يصرفنى احتقارى لنفسى وازدراؤى اياها
عن أن اتمثل هذا الاثم القبيح وأملأ به خلوتى . وأتغنى بالآله
فيما بينى وبين نفسى غناء قبيحا منكرا بشعا أكرهه أشد الكره ولكن
أمعن فيه أشد الامعان .

لن يصرفنى ازدراؤك وازدراؤى لنفسى عن هذا كله . وعن أن
أسجل نغمات هذا الغناء البشع فى هذا الكتاب الذى أرسله اليك .
لست ظالما فحسب أيها الصديق ، ولكنى كافر بالنعمة منكرا للجميل
فلم تكن حميدة زوجى فحسب ، ولكنها كانت منعمة على منقذة لى
رضيت بى بعد ان نبذنى غيرها ومنحتنى ودها وحبها بعد ان
أعلن غيرها أنى لست أهلا لودودها حب .

ان لهذا قصة لم انسها ولن انسها ، لانها عزقت نفسى
تمزيقا ، وعذبت قلبى تعذيبا ، وأذنتى فى أعز شىء على وهو
الغرور والاعتداد بالنفس .

لقد كان أبواي كغيرهما من أهل الريف يعدانني لعروس غير حميدة . وكان أهل هذه العروس يعدون ابنتهم لى منذ نشأنا صبيين . وكانت الفتاة ابنة عمى ، وام تكن جميلة ولا وسيمة ، ولكنها على ذلك كانت محبة الى ائيرة عندى ، لكثرة ما سمعت منذ الطفولة من حديث الزواج .

واكنك لم تر وجهى ولا شكى ايها الصديق . واكبر الظن أنك هرفت من صوتى انى قبيح الشكل دميم انوجه ، بعيد كل البعد عن أن أروق المذارى ، وأرضى أهواء النساء ، ولم أكن أرى ذلك فى نفسى ولا أعترف به عليها . ومتى رأيت رجلا قبيحا دميما يؤمن بأنه قبيح دميم ! ولكن فهيممة كانت ترى ذلك وتتأذى به وتتفر منه أشد التفور وكانت تكره أن يتحدث اليها أهلها وأترابها بأمر الزواج ، ولكنها لم تكن تظهر الكره وتعلن الانكار ، حتى اذا جد الجد وتقدمت بها وبى السن ، وأخذ أهلنا يفكرون ثم يتحدثون فى أمر الخطبة ، جهرت بالرفض جهرا وأعلنت للأباء اعلانا ، وخرجت فى ذلك عما هو مأوف من امثالها من فتيات الاسر فى الريف ، فنبت على أمهاتنا وامتنت على ايها امتناعا ، وأعلنت انها تؤثر الموت على أن تكون زوجا لهذا الشاب الديميم .

وتصور أنت موقع هذا الرفض من نفسى واثره من قلبى وفيما كان يملأ نفسى وقلبى من غرور ، ثم تصور ان حميدة كانت أبرع من ابنة عمى جمالا واكثر منهما مالا ، واذكى منها قلبا واحسن منها مستقبلا ، وانها مع ذلك سمعت رفض فهيممة فأكرته وظهرت انكارها ، وتعمدت ان يصل حديث هذا الانكار الى اهلى ثم الى ، وكان هذا الانكار وما أظهرت من أمره وسيلة المودة ثم وسيلة الحظية ثم وسيلة الزواج وما زالت فهيممة تنتظر الزوج الى الآن ، ولكن حميدة قد طلقت . فانظر الى الاحسان كيف يكافأ بالاساءة ، والى النعمة كيف تكافأ بالكفر ، والى الجميل كيف يكافأ بالعقوق ! ومع ذلك فانى لانظر الان فى المرأة أمامى فأستكشف فى وجهى وخلقى من الدمامة والقبح ما ينهض بألف عذر

وعذر لابنة عمى ، وما يشغلنى بالوان الندم حين أفكر فيما جزيت حميدة به من العقوق .

أتعرف انى أسافر على سفينة انجليزية لا فقد تهيأت لهذه السفينة وانبأنى المنبئون بان المسافرين على السفن الانجليزية اذا استقبلوا المساء لبسوا له لباسا خاصا لا يقبلون فى غرفة المائدة بدونه ، فاتخذت لنفسى هذا اللباس واتخذته على أحسن ما يتخذهُ المترفون . فلما اقلعت السفينة واقبل المساء عمدت الى هذا اللباس فدخلت فيه ، واتخذت ما يتصل به من زينة ، وكانت صورة حميدة لاتفارقنى ، وكانت صورة فهيمة تعرض لى من حين الى حين . فلما تهيأت للخروج من غرفتى سمعت فهيمة تنكر قبضى ودمامتى ، ورأيت حميدة تبسم لى وتشير الى . هنالك نظرت فى المرآة فرأيت : ثم استحييت ثم بكيت ، ثم انزعجت هذا اللباس نزعا ، ولم أخرج الى غرفة المائدة هذا المساء . ثم أصبحت فتكلفت المرض وأخذت نفسى بأن آكل فى غرفتى . وأقسمت لا أغشى غرفة المائدة ولا مجالس السفينة اجتنابا لسخرية النساء ، فما أرى منذ الآن الا انهن جميعا فهيمة .

أترى الى أى حسد انتهى الاضطراب بعقل صديقك وبما له من حس وشعور ؟ وان تعلم حميدة من هذا شيئا ، ولن تعرف حميدة انى أجد من الندم على فراقها ما يفسد على حياتى افسادا ، ويوشك أن ينتهى بى الى شر ما ينتهى اليه الاحياء . ليتنى سمعت لك ! ليتنى قنعت بما كنت أنعم به فى مصر ! فما أظن الا انى مقدم على سراب احسبه ماء ، حتى اذا بلغت لم أجده شيئا .

وأخبرى لم تعرفها أيها الصديق ، ولا بد لك من أن تعرفها لتعلم أنا مكرهون على أكثر ما نأنى من الامر ، وان اختيارنا لعب كله وغرور كله . فقد كنت أحسب ان الناس لا يعلمون من أمرى الا ما يريد ان يعلموا فأنبئتهم به وظهرهم عليه . وكنت أظن ان أكثر من عرفتهم فى القاهرة وعرفوسى يجهلون أمرى واجى جهلا

تألم . وكنت واثقا بأنى أستطيع أن أكذب على الجامعة ان اردت وان ازعج لها أنى أعزب وأن أمسك على زوجى واسافر الى اوربا لا اصطحبها . وكنت مع ذلك حريصا أشد الحرص على ألا أكذب على الجامعة . ولم يكن يدفعنى الى هذا الا حب الصدق وإيثار الخلق والضمير بكرامة العلم وطلابه على الكذب الظاهر والخفى . وكنت أحمد من نفسى هذا الاقدام على التضحية ، وهذا النصح للجامعة ، وهذا اللاحاح فى أن أكون صادقا معها فى السر والعلانية معا .

وكثيرا ما وجدت فى هذه التضحية التى كنت أحبها وارضى منها مظهرا من مظاهر الفرور . ومصدرا من مصادر العجب والتبهر والاكبار للنفس . وكنت أقول لنفسى اذا خلوت اليها : ليس كل الناس قادرا على أن يبلغ من حب الصدق وإيثاره هذا الحد . فأنا اذا شخص نادر وفرد ممتاز . ومن حق الجامعة ان تفخر منذ الآن بخلقى ، كما انها ستفخر بعد قليل بجدى واجتهادى وكفايتى فى البحث وقدرتى على الدرس والتحصيل .

وكان هذا الخاطر الجميل يملؤنى ثقة بنفسى واكبارا لها ورضا عنها . ولعل ذاك كان يظهر فيما كنت آتى من حركة وما كنت ألقى من جمل . بل لعل هذا كان يظهر فيما كان وجهى يأخذ أحيانا من انضور والاشكال . ولكن لاتسل عما أدركنى من الدهش ، وما أصابنى من خيبة الامل ، وما ملأ قلبى ذات يوم من الحيرة والاضطراب حين دعانى سكرتير الجامعة لأزوره . فلما لقيته لم يظهر الراحة للقائى ، ولم يتكلف الانس بمقدمى ، كما كان قد تعود من قبل ، وإنما لقينى فأترا وحدثنى بصوت متكسر ، ثم لم يلبث أن أظهر من التجهم والتكبر والاستطالة ما انكرت ، ثم لم يلبث أن ألقى على حديثا قصيرا متقطعا سريعا كأنه الصواعق يتلو بعضها بعضا ، وقد اتخذ صورة الاستاذ ولهجته ، وصوت لواعظ القالى فى التأنيب ، فما ينبغى لطالب العلم أن يكذب وهو القدوة ، وما ينبغى له أن يغش

وهو الاسوة وقد كانت الجامعة مخدوعة لى . فالان وقد تبين لها الحق وانكشف لها السر تستطيع الجامعة أن تزهد فى زهدا ، وان تنصرف عنى انصرافا . وبين الذين تقدموا للامتحان ونجحوا فيه من يستطيعون أن يشغلوا مكانى فى البعثة ، وان يطلبوا العلم صادقين غير كاذبين ، ومخلصين غير متورطين فى الفس ولا متكلفين للخداع . والجامعة تؤثر ألف مرة ومرة أن تعدل عن ارسال البعثات ، وان تغلق ابوابها اغلاقا فى سبيل الطلاب الذين يختلفون اليها على أن تهيب للامة اساتذة يقيمون حياتهم العلمية على الكذب والفس وعلى الخداع والنفاق .

ولست أخفى عليك أنى ضمنت بهذا الواعظ الشرثار ، وتعجلته اتمام الحديث والانتهاء الى مايريد . فلم يتردد فى أن يلقي الى ما عنده القاء فيه كثير من الازدراء ، قال: زعموا أنك متزوج ياسيدى ، وقد زعمت لنا أنك حر طليق .

هنا أريد ان استغفرك أيها الصديق ، وما أدري اتغفر لى ؟ فقد أسأت بك الظن واتهمتك بأنك أقدمت على الوشاية بى مخلصا حسن النية تريد ان تحول بينى وبين الظلم ، كما أقدمت انا على تطبيق حميدة مخلصا حسن النية أريد أن أفرغ للعلم وأن أتجنب الخيانة والاثم .

نعم ! أسأت بك الظن واتهمتك ، ورأيت ما بيننا من الصلات وقد تصرم وتقطعت أسبابه ، وأحسست شيئا من الحزن لكذب ظنى بك وخيبة املى فيك ، وكان هذا كله سريعا مسرفا فى الاسراع لم أكنه أتنبه اليه . ولم يتنبه سكرتير الجامعة الى أن شيئا غيره وغير حديثه كان يشغلنى . فقد أخذت أسأله من زعم لك هذا السخف ؟ ومن القى اليك هذا الهذيان ؟ وكيف تسمع الجامعة لكل ما يلقي من القول اليها ! وكيف تصدق كل ما يرفع اليها من الحديث ؟ وما ينبغى لك أن تلومنى هذا اللوم ، وتؤنبى هذا التأنيب قبل أن تتحقق أنك تتهمنى بما لا أستطيع له دفعا ، وتأخذنى بما لا أجد منه مخرجا .

قال الرجل : مهلا ياسيدي ، فليس يفنى عنك ما أنت فيه منذ
الآن من التجاء الى الجدل وشغف بالمراء ، فقد ألقى اليها انك
متزوج ، ثم ألقى اليها اسم الاسرة التي أنت مصهر اليها ، فلم تأخذ
بالظنة ولم نطمئن الى الريبة ، وانما بحثنا واستقصينا وسألنا حتى
تبين لنا الحق وعرفنا أنك قد خدعتنا وضللتنا تضليلا . وما
دعوناك اليوم الا لنقطع ما بينك وبيننا من صلة فنرد اليك ما أخذنا
منك ، ونسترد ما أخذت منا .

قلت وقد ثاب انى عقلى كله ، وحرصى على البعثة : قد كان ذلك
ممكنا منذ أيام . اما الآن فلا . ثم قدمت اليه صك الطلاق . فلم
يكذ ينظر فيه حتى تغيرت حاله معى تغيراتاما ، واذا هو يضافحني
مكبرا الى محجبا بى . ألم أقدم على عمل خطير ! . ثم تبسط معى
في الحديث وقد ضم الصك الذى دفعته اليه الى ما ينبغي أن يحفظ
من أوراقى عنده . وما زلت أتلطف له وأمكر به ، حتى أطلعنى
على ذلك الكتاب الذى ارتفع اليه بالنميمة وأبأه بزواجى . فقرأت
ويا شر ماقرات ! وعلمت ويا شر ما علمت ! علمت ان صاحب هذا
الكتاب صديق لى متصل بى ، يتكلف المودة ويظهر النصيحة
والاخلاص . ولكنى علمت انك لست صاحب هذا الكتاب ولا
مقترف هذه الوشاية .

وخرجت من الجامعة راضيا ساخطا ومسرورا محزوننا .
راضيا لان البعثة لم تفلت منى ، وراضيا لانك أنت لست الواشي بى
وساخطا لما انطوت عليه جنوب الناس من المكر والخداع ، ومن
الكذب والنفاق ، ومن الحسد الذى يفسد عليهم كل شيء .
فلم يكن لهذا الصديق الذى وشى بى طمع فى البعثة ولا طموح
اليها ، وانما هو الحسد وحده . راي انى سأسافر الى حيث
لا يستطيع ولا يأمل أن يسافر ، ورأى أن حالى قد تتغير وان حياتى
قد تصالح ، وانى قد أرقى الى منزلة لا يستطيع ان يطمع فيها
ولا أن يسمو اليها ، فكره ذلك وضاق به ، ثم جد فى أن يحول
بينى وبين ذلك ، وان يمسكنى فى المنزلة التى أمسكته فيها

الظروف ، فأبقى مثله خاملا متواضعا محدود الأفق من البيت الى الديوان ، ومن الديوان الى البيت ، والقهوة بين ذلك أحيانا . نعم أيها الصديق ! خرجت راضيا وساخطا ، وأنا لا أفكر حين كنت أحس الرضا أو أجد السخط الا في شيء واحد ، وهو أن كيذا كان يكاد فخلصت منه ، وأن مكرا كان يمكر بي فانتصرت على أصحابه ورددت سهامهم في نحورهم . ثم هبط بي القطار الى البحر ، وأخذت السفينة تمضي بي الى ما وراء البحر ، وأخذت صورة حميدة تلزمني وتلح علي ، وأخذ الندم يثير في نفسي من الخواطر ما يثير ، وإذا أنا الآن أسأل نفسي عن هذه الوشاية التي أنكرتها : ألم تكن خيرا قد صرف عني وحيل بيني وبين الانتفاع به ؟ فلو قد نجحت هذه الوشاية وحيل بيني وبين البعثة لكان هذا الاخفاق أول العقاب علي ماجنيت من ذنب ، ولكان نذيرا بما كان ينتظرني من الشر أن تمت علي ما بدأت من الظلم ، ولكان خليقا أن يردني الى حميدة أو أن يرد حميدة الي . ولكن الله لم يرد الا أن يقدم بين يدي هذه الرحلة نذيرا بما ينتظرني فيها من الآلام ، وطمية لما ينتظرني وراء البحر من الشر .

وصدقني ايها الاخ العزيز اني لأدنو الآن من فرنسا خائفا وجلا شديد التشاؤم ، لا ألتظر خيرا ولا نجحا ، وانما أنتظر شرا كثيرا واخفاقا شنيعا . ولو طأوت نفسي لما استقررت في مرسيليا الا ريثما آخذ السفينة التي تردني الى مصر . ولكن ماذا يقول الناس ؟ وماذا أقول لنفسي ؟ وكيف لقي غيرك من الأصدقاء المخلصين ومن الأعداء الشامتين ؟ وماذا أقول لاهلي وماذا أقول لحميدة ؟ أمضي في قراقها . ولماذا وأنا لم أفارقها عن قلى ولا عن بغض ؟ أم أعود اليها قادما بائسا معذرا مستغفرا ؟ ولكن أسمع لي ؟ انعطف علي ؟ ثم مانفع هذا الحديث الذي هو بالهذيان أشبه منه بالجد ؟ ان السفينة لتمضي امامها لا تلوى على شيء . ولن تقف حتى تبلغ مرسيليا . ولو اردت ان أقفها لما بلغت من ذلك شيئا مهما يكن الحاحي وصياحي ، ومهما اتخذت من وسيلة عنسد القبطان . وانما حياتنا كهذه

السفينة تمضى بنا الى حيث يريد القضاء لا الى حيث نريد ، ومهما نلح ، ومهما نصيح ومهما نتخذ من وسيلة ، فلن نقف حركتها ولن نردها الى وراء ولن نتقى الانتهاء الى هذه الغاية التى رسمها لنا القضاء .

فلأضض اذا الى حيث تريد السفينة ان تنتهى بي . ومه يدري ! لعلى اعود اليك بعد حين ولم أر باريس ، ولم اختلف الى السربون ، ولم اشهد اندية اللهو والمتاع . ومن يدري ! لعلى لا اعود اليك حتى آخذ من هذا كله بحظ . وكل ما أستطيع أن أقطع به الان هو ان هذه السفينة التى تعبر بى بحر الروم ستوفى بى من بعد بحر الى بحر ، كما يقول مسلم بن الوليد . ولكن البحر الذى ستوفى بى اليه ليس هذا ولا ذاك من اولئك الاجواد الذين كانوا يغنون الشعراء ، وانما هو بحر آخر غريص لاحد لعرضه عميق لا آخر لعمقه . هو بحر هذه الحياة الاوربية الملوثة باللذة والالم ، المفعمة بالخير الشر . فليت شعري أرسب فيه أم أطفو عليه ؟

الآن أحس انى قد اطلت عليك . وانما يذكرنى بك ويشير فى نفسى الاشفاق عليك من الاطالة هذه الحركات التى اسمعها تكثر من حولى فى الغرف المجاورة وفى الطريق امام هذه الغرف ، فقد فرغ السفر من لهوهم ورقصهم وعادوا الى غرفهم يقضون فيها مابقى لهم من الليل .

وداعا يملؤه الحب والود والحزن ايها الصديق ! فما ادري ! لعلى لا اكتب اليك بعد هذا الكتاب .

١٣

اغسطس فى ...

أحسست كأنى اسمع صوتا ينادى من بعيد وكأنى ادنو من هذا الصوت ، او كأنه يدنو منى شيئا فشيئا . واستمر هذا الحس لحظة لست ادري اطلت ام قصرت ، ولكنى وجدتني قد

قربت من الصوت او قد قرب الصوت منى فاذا هو بين يدي ،
واذا انا اسمع طرقا على الباب ، واذا انا اصيح دهشا او كالدھش
بلغتى العربية الشعبية : «مين ؟» واذا الباب يفتح واذا شخص
يدخل خفيفا رشيقا سريع الحركة ، سريع الكلام ، واذا هو
يقول فى صوت امرأة : لقد اشفقت عليك ، ولقد حسبت انك لاتفيق ،
واذا هو يسرع الى النافذة فيجذب عنها الستار ويفتحها ويأذن
للشمس بالدخول . واذا دهش ذاهل ، ادعو نفسى واجمعها
فتجتمع لى ، وانظر واشعر فاذا انا فى غرفة الفندق التى اويت
اليها امس حين تقدم الليل . واذا الخادم قد اقبلت تحمل الى طعام
الافطار ، واذا النهار قد تقدم حتى بلغ النصف او كاد يبلغه ،
واذا انا اثوب الى نفسى واذكر من امسى ما كان قد زاده النوم
عنى ، فأعلم انى قد بلغت مرسيليا اثناء الليل امس ، وانى كنت متعبا
مكدودا لكثرة ما ارقى ، وانى ذهبت الى اول فندق دلنى عليه
ذلك الذى حمل اُمتعتى ووضعها ووضعنى معها فى عربة واخذ منى
ما أعطيته من نقد وقال للسائق الى فندق جنيف . وقد بلغت
الفندق بعد الساعة العاشرة ، فلم اقبل طعاما ولا شرابا ، ولم أزد
على ان اجبت على ماوجه الى من اسئلة لم يكن منها بد ، وطلبت
غرفة آوى اليها ، وأنبأت انى سأسافر من القد الى باريس ،
ثم لم اكده ابلغ الضرفة حتى خرجت من ثياب ودخلت فى
ثياب ، واويت الى السرير مسرعا اتمنى لقاء النوم واشفق كل
الاشفاق الا القاه . ولكنى لم اكدا نزلق فى هذا السرير الوثير حتى
احسست راحة وهدوءا ودعة لم اعدها قط . فأين هذا السرير
الوثير الذى اتقنت سمويته مما ألفت فى دارنا فى ريف مصر ، أو
فى بيتى فى القاهرة من هذا الفراش الحشن الغليظ . لقد خيل الى
اننى لا انام على شىء او انى انام على فراش من الزئبق . كان جسمى
يضطرب فى هذا السرير فلا يجه شيئا يقاومه او يثبت له ، انما
كان يغوص فى الفراش غوصا . ولم اكدا طيل التفكير فى هذا ،
ولم اكدا فرغ للتفكير فى غير هذا مما شغلنى آخر ايامى فى القاهرة

واكثر ايامى وليالى فى السفينة ، وانما اخذت افقد نفسى قليلا قليلا ،
ثم لم اشعر الا بهذا الصوت الذى كان يدعونى من بعيد والذى
لم اكدر ارد عليه حتى فتح له الباب ، واذا انا ارى هذا الشخص
الرشيق .

والان وقد دخلت الشمس هذه الغرفة فغمرتها ، وردت على
اليقظة حسى كله وشعورى كله ، وذكرت فى لحظة قصيرة جدا كل
ما انبأتك به ايها الصديق ، انظر فأرى الخادم ذاهبة جائية ،
تهبىء طعامى على المائدة وتدنى هذه المائدة من السرير ، فاخرج
من غفلة النوم لادخل فى غفلة الذهول . فآين انا ؟ وما هذه
العناية بى ؟ وما هذا الحرص على تيسير الامور كلها لى ؟ من زعم
لهؤلاء الناس انى فى حاجة الى عنايتهم هذه الدقيقة ، والى رفقتهم
هذا الغريب ؟ هذا السرير الوثير ، وهذه الخادم تحمل الطعام الى
وتفتح النافذة وتدنى منى المائدة لافطر فى سريري اتراهم ظنوا
انى مريض ! فما احسب انهم ظنوني غنيا من كبار الاغنياء ،
فما كان وجهى لينبىء بذلك ، وما كان شكلى ليدل عليه .

والفتاة تتحدث وتتحدث والحديث ينبعث من قمها حلوا
عذبا رقيقا : أحاول الان أن أتمس له تشبيها فلا اظفر بما
أتمس ، وانما اصور لك الشعور الذى وجدته حين كان يصل هذا
الحديث الى ويغمرنى فيملؤنى دعة وراحة ولذة وهدوءا . كنت
اشعر كأن انسانا يرسل الى نفحات متصلة من الطيب تأخذنى
من كل مكان . وكنت احاول ان ارد عليها بعض الحديث فلا اجد
الى ذلك سبيلا ، لانها لم تكن تمكننى من ذلك من جهة ،
ولانى لم اكن اريد ان اقطع هذه اللذة من جهة اخرى . حتى
اذا هبأت لى كل شىء ودعتنى الى الطعام هممت أن تنصرف ،
فرد الى الرشيد ، وثبت الى نفسى وسألتها مترددا متلهفا : ان
تذهبين ؟ قالت ضاحكة : اذهب الى عملى . قلت : وما عملى ومن
تكونين ؟ او ليس من عمالك أن تمكثى معى حتى افرغ من طعامى ؟
قالت وهى تفرق فى الضحك : « أما عملى فهو هذا الذى رايت

والذى ترى . واما أن أمكت معك حتى تفرغ من طعامك فليس من
عملى وليس اليه من سبيل ، وماذا تكون الحال لو أنى مكثت مع كل
من أحمل اليه الطعام من أهل الفندق حتى يفورغ من طعامه ؟ «
ثم أرسلت الى نظرة فيها دعابة وابتسامة يماؤها الخرف ، ومضت
مسرعة لا تمشى على الارض وانما تمشى فى الهواء ، ثم أغلقت من
دونها الباب وتركتنى ذاهلا كالابله أمام هذا الافطار الذى
تركته وقتا غير قصير معرضا عنه اعراضا ، ثم ناظرا اليه
دون أن أقدم عليه .

وانى لفى ذلك واذا الباب يطرق ، فاذن فتدخل الفتاة
نفسها قد أقبلت تحمل آنية الطعام ، فاذا رأت كل شىء كما
تركته منذ حين سألتنى دهشة عن أمرى ، فأسرع الى الطعام
ضاحكا وأنا أقول : ألم أطلب اليك أن تمكثى معى حتى أفرغ من
الافطار ؟ لقد أبيت فلم أفطر ، وها أنت ذى تعودين ، فانظرى
كيف مسرع الى الطعام .

وكنيت مزمعا أن أسافر مع المساء الى باريس ، ولكنى لا
أدرى لم غيرت رأى ، أو لعلى أدرى لم غيرت رأى ، فقد
قضيت فى القاهرة أياما ثقالا واجهدنى عبور البحر لكثرة
ما فكرت وقدرت واكثرة ما أرقى وليس ما يدعونى الى أن أسرع
الى باريس ، فليس الفصل فصل درس ، واللغة الفرنسية موجودة
مسموعة حيثما وجهت من أرض فرنسا ، فما يمنعنى أن أقيم فى
هذا الفندق الجميل المترفا يما أعود نفسى فيه حياة الفرنسيين
وأخذ نفسى بما لا بد من أن أخذها به من العادات والتقاليد حتى
لا أظهر غريبا مضطربا حين أصل الى العاصمة ؟ وما يمنعنى أن
أعود نفسى العبث فى مياه البحر على الساحل قبل أن أبعد فى
السباحة وقبل أن اضطر الى مصارعة الامواج الضخام ؟
لامكت اذن فى هذه المدينة أياما أستمتع فيها بالراحة وأتمرن
فيها على الحياة الجديدة ، وانعم فيها بدخول هذه الفتاة على
تحميل الافطار الى اذا أصبحت ، فمن يدري أين يكون مستقرى

في باريس ! أجد غرفة كهذه الغرفة ، وسريرا كهذا السرير ،
وفتاة كهذه الفتاة تحمل الى الطعام في كل صباح ؟ وهسهسه
المدينة وسط بين الجو الاوربي الخالص والجو الافريقي الخالص
فهى على البحر الابيض المتوسط وفى الانتقال الفجائى من جوالى
جو خطر على صحة الجسم ، وقد يكون فيه خطر على صحة
النفس أيضا ، فلاصطنع الاثاة ولادع هذه المجلة فانها لاشئ
من الشيطان ، وما يمنعنى ان استأنى وقد تركت مصر وجعلته
من بينها وبينى بحرا عريضا ، فلست أخاف على البعثة ، ولست
أخشى أن ارد عن باريس .

وكذلك خلقت لنفسى ايها الصديق من التملات والمعاذير
ما أقنعنى بأن الاسراع الى باريس خطئ وحمق ، وما حملنى على أن أنبى .
أصحاب الفندق بانى ساقيم اياما ، وعلى أن اقدم على الكذب
الاولى فى حياتى الجديدة فاكتب الى مراقب البعثة بانى متعب
محتاج الى الراحة ، وبأنى سأبلغ باريس بعد اسبوع

والغريب انى قضيت النهار هادئا مستريحا ، لا أكاد افكر
فيما تركت ولا فيمن تركت ورائى قبل أن اسبر البحر ، ولا
أكاد أشعر بشيء من هذا الالم أو هذا الندم اللذين كانا يشقلان
على فى السفينة ، واللذين صورتهم لك تصويرا مخيفا فى
آخر كتبى اليك ، واللذين كنت أظن أنهما سيلزماننى لزوم الظل
لم اكد اشعر بشيء منهما . ماذا اقول ! بل لم تتراءى لى صورة
جميدة الا مرتين أو مرات قليلة وكانت تتراءى لى من بعيد
شاحبة الوجه كاسفة البال بادية الحزن ، ولكنى كنت اراها مسرعة
كأنها لا تريد أن تقف عندى ولا أن تثبت لى

وهأنذا اكتب اليك الآن بعد ان عدت الى غرفتى وقد كاد
يلغ الليل نصفه ، ونظرت فاذا الغرفة قد هيئت لاستقبالى ،
واذا السرير قد هيىء لايوائى ، واذا دورق من الماء وكوب قهوة
وضعا على هذه المائدة الصغيرة التى تلى السرير . من قهوة
ماتعودت مثل هذه العناية . ولقد كان الظلم .

الريف ، ولقد كان الظما يوقظني في القاهرة ، فما كنت اجد الى
انتقائه سبيلا الا ان اتكلف النهوض والسعي الى حيث وضعت هذه
الجرار الصغيرة التي كانت تبرد لنا الماء . فاما الآن فان الظما
يستطيع أن يهجم على وأن يوقظني ، فسأعرف كيف اردته
ردا ، وكيف اعود الى النوم كما خرجت منه لا اجد في ذلك جهدا
ولا عناء

على اني لم أكد أرى هذا الدورق وأفكر فيما كان يعتادني
من الظما في مصر حتى احسست الظما ، فاصب شيئا من الماء
احسوه في هدوء . ولكن ماذا لانه لا يرد عني ظمأ ولا ينقع لي
فلة ، وانني لا اجد له لذة حين احسوه ، ولكني اذكر قصة
الاخلطل وحديثه حين عرض عليه الماء في مجلس عبد الملك فقال :
شراب الحمار

ولست حمارا ياسيدي مهما يكن رأيك في وفي ذلك الشيخ ،
او قل كنت حمارا قبل ان اعمر البحر ، فلما دخلت هذا الفندق ،
وصعدت الى هذه الغرفة وأويت الى هذا السرير ، وانغمست في
فراشه الوثير ، وادركني ما ادركني من النوم العميق ، وأيقظتني هذه
الفتاة ذات الوجه المشرق والشعر المضيء والحديث الحلو والروح
الخفيف ، نظرت فاذا انا لم ابق حمارا ، واذا انا قد مسخت
انسانا او قل صورت انسانا ان كانت كلمة المسخ لا ترضيك ،
ولكنني على كل حال قد دخلت النوم . حمارا وخرجت منه انسانا
يحس ويشعر ويعقل ويدوق لذة الجمال ويعرف كيف
يستمتع بسحر العيون . اصبحت انسانا ، وذكرت قصة
الاخلطل ، فعفت شراب الحمار ، وآليت لا ارد الظما الا بمثل
مارده به الاخلطل . ولا تغضب ياسيدي ولا تثر ، فانا في بلد
قلما يشرب اهله الماء . وقد شهدت غداء الناس وعشاءهم
ودهشت حين سألني الخادم ماذا اريد ان اشرب ، فلما
طلبت اليه الماء أظهر دهشا لم يكن اقل من دهشي حين القى على
سؤالي . ثم اقبل على بالماء ، وبعد لحظة حرق النظر في ، ثم

قال : الا يريد سيدي شيئاً من النبيذ ؟ . فلما ابست قال متبسّطاً في لغة اهل الجنوب ولهجتهم : « سيدي مخطيء فالماء لا ينقع الغليل هنا » . ثم انطلق وعاد الى بعد لحظة ومعه دورق فيه نبيذ . ونظرت فلم أر الماء في حجرة الطعام كلها الا على مائدتي ، فاستحييت وشربت كما يشرب الناس . وكنت احسب ان الخادم انما يريدني في النبيذ ترويجا لتجارة الفندق ، فلما فرغت من طعامي عرفت أن الناس يشربون النبيذ في هذا الفندق كما يشربون الماء لا يدفعون له ثمناً ، او هم يؤدون ثمنه فيما يؤدون من ثمن الغداء والعشاء . آليت اذا يسيدي ألا ارد الظأ بـ شراب الحمار ، وازمعت ان ادفعه بهذا الشراب الذي لم انتظر قدومي الى فرنسا لاعرفه وهو الجمّة ، فأدق الجرس وانتظر ان يطرق الباب وان يفتح وان تدخل على هذه الفتاة . ومن يدري ! لعل لم أزدرد الماء ولم أفكر في قصة الاخطل ولم أبتغ هذا الشراب الحرام الا تعلقة لادق هذا هذا الجرس ، ولتدخل على هذه الفتاة ، وليكون بينها وبينى طرفاً من حديث يقصر او يطول . فقد جعلت اتهم نفسي في كل ما آتى وفي كل ما اريد منذ استيقظت ظهر اليوم . واني لاتبين ان منظر هذه الفتاة وعدوبة حديثها وخفة روحها وحسن خدمتها ودخولها على مع الصبح واذنها للشمس ان تغمر غرفتي ، كل هذا هو الذي يطأني عن باريس وحب الى المقام في هذا الفندق . فانا اذا فكرت او قدرت او هممت او فعلت ، أسأل نفسي لعل من وراء هذا التفكير والتقدير و لعل من وراء هذا الهم والفعل غرضاً خفياً غير ما توخيت من الاغراض الظاهرة . والباب يطرق وانا اعلن الاذن بصوت مرتفع تظهر فيه اللفتة وقليل من الاضطراب . والباب يفتح ، ولكن ماذا ارى ! ارى رجلاً شاباً قد اقبل فاتراً متثاقلاً وقال في صوت خافت يملؤه الكسل والسأم والضيق : سيدي يريد ؟ قامت وانا اتكلف كظم ما يملؤني من الغيظ واخفاء ما لا اشك في انه ظهر على وجهي وفي عيني من خيبة الامل قلت وكأني ألقيت في وجهه ما قلب القاء : اريد زجاجة من الجمّة

قال : نعم صغيرة أم كبيرة ؟ قلت مفضبا : أكبر ما عندك . ثم انصرف
عنى وعاد الى بزجاجة وقدمه . فلما هم ان ينصرف قلت : فقد
أحتاج الى أخرى ، وما أحب ان اشق عليك حين يتقدم الليل .
قال مبتسما : ان سيدى لطيف ، ولكن عندى ما يريد سيدى . ثم
مضى وعاد باناء فيه الثلج وفيه زجاجة اخرى من الجعة ، وتمنى
لى ليلا سعيدا ، وأغلق من دونه لباب .

ولعلك تذكر ايها الصديق اقبالى على الشراب ، وعلى الشراب
خاليا ، وعلى الشراب بعد ان كذب الظن وخاب الامل . ولكن ما رايتك
فى ان كذب الظن وخيبة الامل ، هما اللذان دفعانى الى الشراب دفعا ،
فقد وجدت على الحظ وسخطت على الزمان ، وأبيت ان اذعن لمكر
الاقدار وغدر الظروف ، واقسمت لا اذوق النوم حتى أرى وجه هذه
الفتاة المشرق وثغرها المضى ، واسمع حديثها الحلو واستمتع بروحها
الخفيف . وأى شئ أعون لى على السهر من الشراب والتفكير فيها
والكتابة اليك ! لا تغضب ، فما كنت لا كتب اليك لولا أن أخلف
الحظ ظنى وكذب أملى ، واضطرنى الى أن أستعين بك على الليل فى
مرسيليا ، كما كنت أستعين بك على الليل فى القاهرة . لا تغضب ،
فقد عرفتني أوثر الصديق على الكذب ، واكره أن أغشك أو أخفى
عليك ما أجد . ولو خيرنى الحظ بين زيارة هذه الفتاة لحظة قصيرة
تهدا لها نفسى الماثرة وتستقر لها خواطرى المضطربة ، ثم آوى
الى السرير لانام ، وبين لقاءك أو الكتابة اليك ، لما ترددت فى أن
أرجى لقاءك والكتابة اليك الى غد حين يشرف النهار وتملك النفس
صوابها كله وأمنها كله ، ويفكر العقل فى غير فتور ولا قلق ولا
اضطراب . ما أظن أنك ستمضى عن هذا الكتاب ، فليس فيه شئ
يرضيك ، وليس فيه شئ يرضينى . وما كتبت اليك لارضيك ولا
لارضى نفسى ، وانما كتبت اليك انتظارا لمطلع الشمس

ما أسرع ما تتغير نفس الانسان ! بل ما أسرع ما تغيرت نفسى !
فصدقنى أنى أنكرها أشد الإنكار ، ولا أكاد أصدق أن هذه
النفس التى كانت هائمة بحميدة . محزونة بل جزعة لفراقها ، نادمة

أشنع الندم وأبشعه على ما قدمت إليها من مساءة واقترفت في ذاتها من اثم - لا أكاد أصدق ان هذه النفس التي لم تكن تذوق النوم الا غرارا « مثل حسو الطير ماء الثماد » كما يقول شاعر ك القديم ، قد نسيت أو كادت تنسى حميدة وفراقها وطلاقها ، ومحبت منها أو كادت تمحى صورة حميدة قائمة في غرفتنا تلك تنهل دموعها الصامتة . لقد كانت هذه الصورة تؤرقني الليل ، وتنقص على النهار ، ويملاً سنوحها لي قلبي فرقا وذعرا . فأنا الان أنتظرها فلا تسنح لي ، وأدعوها فلا تستجيب لي ، وألح في الدعاء في الاستحضار فأتمثلها شاحبة واجمة ، وكأنني أستحضر روحا من أرواح الموتى . وهي لا تثبت بعد أن أجهد نفسي في دعائها واستحضارها ، وانما تمر بي مراسريعا كأنها الطيف .

كيف انتقلت من طور الى طور ، وكيف تغيرت من حال الى حال ! أكنت خيرا فأصبحت شريرا أم كنت شريرا أتكلف الخير ، فلما بلغت هذا البلد ألقيت عن نفسي أعباء التكلف وأتقاله وظهرت لنفسي كما أنا ، لا متحفظا ولا متأنفا ؟ أم ماذا ؟ اني لفي حيرة لأعرف لها حدا ، ولكني على ذلك كله راض عن نفسي بعض الرضا ، بل كل الرضا . أترى أنني أسأت حين قطعت ما بيني وبين حميدة من الاسباب ؟ هبني لم أفعل ، أفكان ما بيني وبين حميدة من الصلة يعصمني من الشر الذي أنا مدفوع إليه ، أم كنت أدفع الى الشر دفعا وأقترف الاثم اقترافا لا أحفل بحميدة ولا بحبها ولا بهذا العهد المؤكد الذي قطعته لها بالوفاء ؟ . فأنا مدفوع الى الشر ما في ذلك شك ، وأنا عاجز عن المساومة ، وأنا أسأل نفسي دون أن ألح عليها في السؤال : أليس يمكن أن تكون هناك قوة خفية ماكرة قد دفعتني الى ما وراء البحر لألقى في هذه الارض الغريبة كيذا يدبر وأمرأ يراد ، ولاكون بهب لشيياطين الاثم والغواية والفسساد ؟ انا ألقى على نفسي هذا السؤال منذ رايت هذه الفتاة ففتنت بها ، ولكني اكره ان أطيل الشغل فيه مخافة ان يشوب الى الرشك وان يرد الى المسبواب من عرين ، وان اتبين

ما انا مقدم عليه . ولست اريد ان اتبين ما انا مقدم عليه الآن ،
وانما اريد ان اتبين الشر ان كان هنالك شر بعد ان انورط فيه .
لماذا ؟ لست ادري . ولكنى لست أستطيع أن أقف ولا أن أتأخر ،
انما أنا شيء قدفت به قوة عفيفة من قمة الجبل فهو يتدحرج على
السفح لا يستطيع ان يمسك نفسه ولن يستطيع أن يمسك
نفسه ، حتى يبلغ الحضيض فتمسكه الأرض السهلة المستوية
كنت ملجأ في طلب البعثة رغبت في العلم الذى كنت أزينه انفسى
ام رغبة في هذه الابواب من الفتنة التى لم اكن أستطيع ان
أستفتحها في مصر ، والتى لست احتاج ان أستفتحها في فرنسا
لأنها تفتح لى وحدها ؟

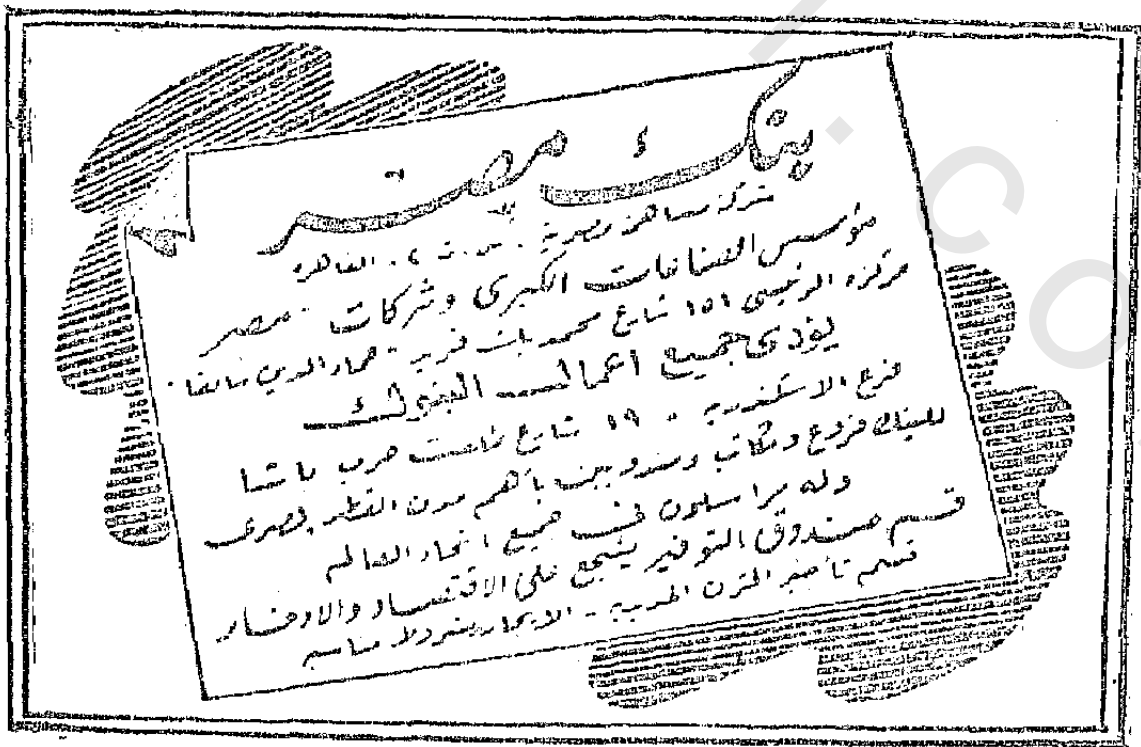
ماذا أقول ايها الصديق ! أترانى جننت أم ترانى سكرت ؟
كلا ! لست مجنوناً ولا سكران . وهاتان الزجاجةتان لم أمسسهما
وانى لاتبين كل ماحولى ، وانى لاعرف انى اكتب اليك ، وانى
لاستطيع ان انبئك من امرنا بما لا يحسن المجانين ان ينبئوا به .
ولست مجنوناً ولا سكران ، وانى عاقل محكم العقل واضح
الرأى صافى الذهن . انظر فى المرأة فأرى نفسى منكورة بشعة ،
واخجل منها حين انظر اليها اكثر من خجلى منك حين اكتب
اليك . نعم لست مجنوناً ولا سكران ، ولكنى رجل يزدري
نفسه أشد الازدراء ويمقتها ، ابشع المقت . وكيف تريدنى
على ألا ازدري نفسى وانا لا اكادارى خادماً مبتدلة تحمل الى
الطعام وتبسم لى وتتحدث الى ، كما تحمل الطعام لعشرات من
أمثالى وتبسم لهم وتتحدث اليهم ، بالصوت نفسه وباللهجة
نفسها وبالدعابة نفسها ، لا اكاداراهم مع هذا كله حتى يجن بها
جنونى ويفتن بها قلبى ، وارجى من اجلها الرحلة الى باريس ،
واقضى من اجلها الليل مسهدارقا ، استعين على انتظارها وعلى
انتظار الصبح بالكتابة والشراب !

لست مجنوناً ولا سكران ، بل لست ادري من أنا ولا ما عسى
ان اكون . لقد زعمت لك منذ حين انى كنت حماراً قبل ان

أعبر البحر فردتني هذه الفتاة انسانا . فصدقني ! انى لا أرى
نفسى انسانا ! ولا اعرف من اى نوع انا بين الانواع الخمسية
الديئة من الحيوان

الى اللقاء أيها الصديق لا أحب أن أطيل فى هذا الحديث
فانى أخشى ان أخرج من طورى ، وان ادفع الى هذا الجنون الذى
انكره وأبرأ منه

الى اللقاء ! لو انى عقلت واحكمت امرى لانصرفت عنك
الى هذا السرير الذى يدعونى الى الراحة والنوم . ولكنى اعلم
حق العلم انى لن أستريح ولن انام ، وانى سأقضى الليل ان
أويت الى فراشى لعبة اصورتين مختلفين أشد الاختلاف ،
احدهما تخيفنى حتى تبلغ بى أقصى الخوف ، والاخرى تفرينى
حتى تنتهى بى الى غاية الاغراء . احدهما حميدة البائسة
والاخرى هذه الفتاة الخادم التى لا اعرف من امرها شيئا الا انها
جميلة رشيقة حلوة الحديث خفيفة الروح ، تحمل الظلم
وتبسم للاضياف . كلا ! كلا ! انى لا أكذب عليك واكذب على



نفسى . انى لاعرف من امرها اكثر من هذا قليلا : ان اسمها « فرند »

الى اللقاء أيها الصديق ! لا شغلن نفسى عنك وعن هاتين الصورتين بمصارعة هاتين الزجاجتين ، فاما ان تصرعانى فاستريح حتى توقظنى هذه الفتاة من غد ، واما ان اصرعهما فليس الجرس بعيد . وما على اذا ازعجت الخادم وكلفته ان يحمل الى زجاجة أو زجاجتين !
الى اللقاء !

١٤

أكتوبر فى

ليست الحياة لعبا أيها الصديق ، أو قل ليست الحياة كلها لعبا . والجنون مباح على أن يكون قليلا ، فان طال فمصير صاحبه الى مستشفى المجانين . وقد أشفقت ان يطول جنونى ، وقد أشفقت ان ادفع الى هذا المستشفى ، ولكنى افقت بهد لاي ورشدة بعد غي ، وكان اول ما لقيته فى فرنسا شرا ، ولكنى أرجو ألا استقبل فيها منذ اليوم الا خيرا متصلا

أنا أكتب اليك من باريس بعد أن أقمت فيها إقامة المستقر لا إقامة الزائر الملم . فستبدل الحياة الجامعية بعد أيام ، ولابد من الانتساب الى الجامعة والاختلاف الى الدروس ، والا وددت الى القاهرة اشنع رد . وكيف ألقاك ! وكيف ألقى أصحابنا ! وكيف ألقى أهلى وأصحابهم فى الريف ! وماذا أقول للناس ! وماذا أقول لصورة حميدة ان عرضت لى فسألتنى ماذا افدت من المكث فى باريس أو فى غير باريس من مدن فرنسا ! وماذا أقول لصورة حميدة ان سألتنى ماذا جنيت من هذا الطلاق الذى اقدمت عليه فى غير أناة ولا رشد ولا تفكير !

نعم ! لابد من الانتساب الى الجامعة والاختلاف الى الدروس وأرضاء الاساتذة الذين لا يرون اوارعهم مراقب البعثة الذى

اعرفه واحبه اصدق الحب وافواه ، وارضاء نفسى التى
لا أدرى أوفى اى ارضائها أم اعجز عنه ! فانها بعيدة الطمع
شديدة السخط على منذ عسرت البحر

لابد من الانتساب الى الجامعة ، والاختلاف الى الدروس ،
وارضاء مراقب البعثة لظفر بنقته واحترامه ! فانا فى حاجة
شديدة اليهما ، واذا لم ظفر منه الى الآن الا بالخطف والبر
والاشفاق بسد السخط الذى ليس فوقه سخط والفضب
الذى لا يشبهه غضب . ففقد كلفته من لشقة مالم يكلفه احد
من قبلى ، وقد حملته من الجهد مالم أحمله احدا من قبله . فلم
تكن هذه الاسابيع التى انقضت فى فرنسا نعمة ولا راضية ،
ولم يكن يملؤها الهادوء والطمأنينة وانما كانت اسابيع بؤس وجنون
وشقاء ومرض أيضا . وكتسم على ! فان احدا من المصريين فى
باريس لم يعرف مما اصابنى شيئا ، وانت اول من يعرف
قليلا من امرى بسد مراقب البعثة ، هذا الصديق الفرنسى
الذى يعرف من امرى كل شىء ، ويكتم من امرى كل شىء ، ويمنى
بأمرى عناية الاخ المحب الرفيق ، والذى استطاع ان ينقلنى من
فساد لا حد له الى اصلاح ارجو لا يكون له حد

انا اكتب لك من باريس بعد ان اقامت فيها اقامة السساكن
المستقر لا اقامة الزائر الملم . فغدت زرت باريس فى الصيف ،
والكنى لم اقم فيها الا يومين اثنين لقيت فيهما مراقب البعثة
وعرفته بنفسى . فقلت له رسمت منه ، ثم استأذنته فى ان
أترك باريس حتى ينقضى الصيف . ولم ير بذلك بأسا ،
ولعله رأى فيه خيرا . فقد كان يحب الالقى المصريين لاول
عهدى بفرنسا ليصطحبهم الى اللغة ويحسن حديثى الى
اهلها وفهمى عنهم . وقبل زعمته الى احب ان اعود الى ساحل
البحر الابيض المتوسط لان جوده قريب من جو مصر ، فلم ينكر
ذاك ولم ير به بأسا . فقلت له عن مارسيليا وزين الى مدينة
قريبة منها على ساحل البحر ايضا . هى مدينة « كان » .

فأظهرت الطاعة له والقبول لرأيه . والغريب انه منحني أجر السفر على حساب الجامعة للذهاب والاياب . وتركتـه وتركت باريس ! ولكنى لم اذهب الى « كان » ولم انزل فى الفندق الذى سماه لى من فنادقها الابعد ان مررت بمرسيليا . واقمت فى فندق جنيف اياما ، واستوثقت من انى لن اكون وحيدا فى « كان » .

ولم لا ؟ ان لفرند وان كانت خادما الحق فى ان تستريح وتضطاف كما يستريح السادة ويضطافون . وما يمنعهما ان تستريح وتضطاف اسبوعين حيث استريح انا واضطاف !!

وكذلك لم اسافر من مرسيليا الا بعد ان قدمتها بين يدى الى « كان » فى قطار الصباح ، واحتقنها فى قطار من قطارات المساء ، ولا تسلم بعد ذلك عن هذه الايام الحلوة المرة ، المشرقة المظلمة التى قضيتها فى هذه المدينة مع فرند فى أول الامر ، ثم وحيدا بعد أن آن لفرند ان تعود . ولا تسلم عما جنته على هذه الوحدة من السيئات والآثام ! فانت اكرم على وأحب الى من ان اقص عليك تفصيلها المنكر البشع . وانت لاتقرأ كتبى بنفسك ، وانما يقرؤها عليك غلامك الاسود الصغير . وحسبك ان تعلم انى رجعت الى باريس متعبا مكدودا . استغفر الله : بل مريضا مشرفا على اعظم الخطر واشده نكرا . ولولا مراقب البعثة لما برئت . وان له عندي ليذا ما اعرف انى استطيع مكافأتها الا بالجد الذى يرضيه . ولابلغن من هذا الجدا اريد واكثر مما اريد

لا تغضب ان انقطعت عنك كتبى ! فما اظن انى سافرغ للكتابة اليك قبل ان يمضى وقت طويل .

وكان طويلا حقا هذا الوقت الذى انقطعت عنى فيه رسائل صاحي . وقد كنت اقدر انه سيمر كثر شهرا او شهرين .

وكنيت اظن انه لن يستطيع ان يبلغ هذا الامل دون ان تشور
به خواطره هذه الغريبة فترده الى يلتمس عندي شيئا من
الامن وراحة النفس واستقرار الضمير . ولكن الاسابيع مضت
في أثر الاسابيع ، وانقضت الاشهر في اعقاب الاشهر ، دون ان ألقى
من صاحبي كتابا او شيئا يشبه الكتاب . والفريب انه لم يعرض
عن الكتابة الى وحدي ، وانما انقطعت عن اصحابنا هذه الجمل
القصار التي كان يرسلها اليهم على بطاقات البريد ، وانقطعت
اخباره حتى عن اهله في الريف . فكثيرا ما كتب الى أبوه الشيخ
يسألني اوصل الى من أنباء ابنه شيء ، فكنت ارد عليه بأن ابنه
في باريس على خير حال . يختلف الى السربون ، ويرضى اساتذته ،
ويرضى مراقب البعثة . ويرضى الجامعة المصرية عنه احسن
الرضا . ونم اكن اعطه بالاماني ولا اقول له غير الحق ، وانما
كنت أسأل عن صاحبي في ادارة الجامعة ، واعرف منها انه بخير
وانه يجد في الدرس جدا غير مألوف ، ويظهر من التفوق ما لم
يألفه الاساتذة الفرنسيون من الطلاب المصريين . ولم اكن اجد
في هذا غرابة ! فقد كنت اعرف من ذكاء صاحبي الشاذ واستعداده
النادر ما لم يكن يعرف غيري من الذين اتصلوا به وخالفوه . وكانت
هذه الانباء تكفيني وترضييني ، وتقوم له بالعذر عندي عن انقطاع
رسائله عني ، وتملا نفسي حبا له واعجابا به وشوقا اليه وحرصا
على ان يتاح لي ما اتيح له من الحظ فأعبر البحر كما عبره .
ولكني كنت اقسى لمن بلغت مرسيليا لأجتنب المقام فيها الا
ريثما يحملني القطار الى باريس . وكثيرا ما كنت اسخر من نفسي
حين كان يخطر لي هذا الخاطر ، فماذا أخاف من مرسيليا ! وماذا
أخاف من فندق جنيف ! وماذا أخاف من فرنند وامثال فرنند !
وما انا وهذه الفتن التي لم تصل الايام بيني وبينها سببا ، ولم
تجعل الايام لها على نفسي سبيلا ! وما انا وهذه الفتن وقد كنت
غارقا في الدرس والتحصيل أتأهب لامتحان الازهر الذي
اخفقت فيه اخفا قبيحا ، وأتهيأ لامتحان الجامعة الذي نححت

فيه 'جأحا حسنا' ثم ما أنا وهذه الفتن وقد كنت غارقا في ادب أبي
العلاء وفلسفته ، متمثلا لهذه الفلسفة ، متكلفا لتشاؤم شيخ
المعرة ! وكثيرا ما كنت اخذع نفسي وأغراها ، وأزعم لها أنني سأذهب
الى باريس كما ذهب أبو العلاء الى بغداد . ومن يدري ! لعلى
أعود من باريس ؟ كما عاد أبو العلاء من بغداد ، فالزم قرية
من القرى واقم فيها لأريم . ولم أكن في حاجة الى أن اطلب الى
أهل هذه القرية كما اطلب أبو العلاء الى أهل المعرة ألا يكلفوه أن ينفر
معه من القرية إذا انشأ عليهما الروم ! فلم أكن أخشى أن يغير
الروم على قريتي في أدنى الصعيد أقصاد . وكذلك كنت مشغولا
بجد الدرس وغرور الشباب عن هذه الفتن التي تعرض لها
صاحبى ، فأفسدت عليه خلقه ودينه وصحته ، وكادت تنتهى
به الى الموت .

ثم ينقضى العام ويتقدم الصيف ، وإذا الانباء تأتي من باريس بأن
صاحبى قد فعل الامتحان ، فأنا في عام واحد ما لا يتمه غيره في
اعوام ، وتقدم الى امتحان ذى بال أنفاز فيه وفاز بتهنئة الاساتذة
ايضا . وهو مع ذلك لا يكتب الى ولا يفكر في . وقد كنت أظن أن
فوزه في الامتحان وفراغه للمراحة سيردانه الى صديقه لحظات قصارا
أو طوالا .

ولكن الصيف كله ينقضى وأنا ألح عليه بالكتب فلا أظفر منه
بشيء . حتى إذا كان شهرا أكتوبر تبيت منه هذه الاسطر :
أكتوبر فى ...

انك تنتظر أن أكتب اليك لأصف لك حياتي فى باريس .
وما كان أحب الى أن أفعل ! ولكن حياة باريس لا توصف فى الكتب
والرسائل ، ولا سبيل لك الى أن تعرفها مقاربة الا اذا حييتها .
على أنى أحب أن أصور لك شهورى فى باريس تصويرا مقاربا غير
دقيق . ولن يكون هذا التصوير كلام أكتبه اليك ! فالكلام كما
قلت لا يغنى فى باريس شيئا . لكن اذهب الى الاهرام ، فما
أظن أنك ذهبت اليها قط ، واهدى الى أعماق الهرم الكبير ، فستضيق

فيه بالحياة وستضيق بك الحياة، وستحس اختناقاً وسيصيب جسمك عرقاً ، وسيخيل اليك أنك تحمل ثقل هذا البناء العظيم، وأنه يكاد يهلكك، ثم أخرج من أعماق هذا الهرم واستقبل الهواء الطلق الخفيف، وأعلم بعد ذلك أن الحياة فى مصر هى الحياة فى أعماق الهرم ، وأن الحياة فى باريس هى الحياة بعد أن تخرج من هذه الأعماق . واجتهد فى أن تتم ما بقى لك من درس فى القاهرة ، وتؤدى ما بقى لك من امتحان . واجتهد أيضا فى أن تستبقى رضا الذين يحبونك ويشجعونك ويريدون أن تتم درسك فى باريس . وأسرع الى باريس متى استطعت فانى أنتظر ك فيها ، وما أكثر ما سيكون بينك وبينى من الأحاديث !

١٦

وتنقضى السنة الدراسية كلها لا يصل الى فيها من صاحبى كتاب ولا نبأ . وانما أسأل عنه فى الجامعة كما كنت أسأل فى العام الماضى ، فأعرف من أنبائه كما كنت أعرف فى العام الماضى انه مقبل على الدرس فى فسطاط وتفوق ، وقد أخذ يدرس اللاتينية بعد أن أحسن الفرنسية احسانا لا بأس به . وأنا أكتب الى أبيه الشيخ بما أعرف من أنبائه وأتحدث بها الى أصحابنا ، حتى أصبح اسمه بيننا رمزا للجد فى العمل وللتوفيق فى الحياة . وقد تهيأت لى أسباب الرحلة الى فرنسا على خير ما كنت أحب . وانى لاستعد للرحيل متنقلا لذلك بين القاهرة والصعيد ، واذا الحرب الكبرى تعلن ، واذا كل شىء يتغير فى حياة الافراد والجماعات ، واذا وحتى تؤجل ، واذا أنا مضطرا الى أن أقيم فى القاهرة بأئسا محزوننا سيىء الحظ خائب الامل . وتأتى الانباء بأن الطلاب المصريين قد هجروا باريس كما هجرها كثير من الفرنسيين ، وكما هجرتها الحكومة الفرنسية نفسها حين دبت منها جيوش العدو . ولكنى أتلقى من صاحبى هذا الكتاب .

أغسطس فى . . .

لقد زلزلت الارض زلزالها ، واضطرب فيها كل شىء وكل انسان أيها الصديق ، وما أحاول أن أصف لك من أمر الحرب شيئا ، فأنت تقرأ من ذلك فى الصحف المصرية والاجنبية مالا أستطيع أن أبلغه ولا أن أقاربه . وانما أكتب اليك محزوننا لان الظروف لم تهين لك الرحلة التى كنت ترجوها وتعتقد بها الامال ، والتى كنت أنا أرجوها وأنتظر منها خيرا كثيرا . فليس لى بينه المصريين المقيمين فى باريس صديق آنس اليه ان سرتنى الحياة ، أو أستعين به ان ساءتنى . وانما نحن قوم متخاذلون متنافسون ، يبغض بعضنا بعضا ، ويمكر بعضنا ببعض ، ويكيد بعضنا لبعض فى كل شىء ولسبب ولغير سبب . قد طوى كل واحد منا نفسه عن أصحابه ، فجهل كل واحد منا من أمر أصحابه كل شىء الا هذه الامور الظاهرة التى ليس الى جهلها من سبيل . فنحن نعرف من يختلف الى السوربون فى مواظبة ، ومن يزورها لما ، ومن ينفق يومه فى البيت وليله فى القهوة . ونحن نعرف من يعبت مع هذه الفتاة من بنات الغنى ، ومن يدور حول هذه الفتاة من طالبات العلم . ونحن نعرف من تفسد عليه الغواية حياته كلها ، ونعرف من يلقيه تتبع الطالبات فى غير نفع عن الدرس والتحصيل . ونحن نعرف من يكتب الى أهله بالا كاذب ويخدعهم بالامانى ، ويستخلص منهم المال بالحق والباطل ، وينفق حياته كلها فى اللهو واللعب . ونحن اذا لقى بعضنا بعضا لم نتحدث الا فى هذا ، ولم نستعن بأنفسنا الا بهذا . وأظنك تعلم أن ليس لى فى شىء من هذا أرب ولا لذة . فأنا وحيد بين المصريين فى باريس وان لم أكن وحيدا بين الفرنسيين ، فقد اتخذت لى منهم أصدقاء أحبهم ويحبوننى وآمن لهم ويأمنون لى . ولكنى ألاحظ أن لى نفسين : نفسا تأنس الى الفرنسيين ، وتجد اللذة فى عشرتهم وأحاديثهم ومشاركتهم فيما يأخذون فيه من الجد واللهو ونفسا أخرى مشوقة أبدا ، ملتاعة أبدا ، تحب أن تسمع صوتا

مصريا صادقا ، وأن تأمن الى قلب مصرى صادق • على أنى قد
حرمت لقاء المصريين والفرنسيين جميعا • فأما أولئك فقد فروا
بأنفسهم من الموت الذى يقال انه قد يغزو باريس • وأما هؤلاء فقد
دفعوا بأنفسهم دفعا الى لقاء الموت ليردوه عن باريس • وقد أنفت أن
أفر مع أولئك ، وضعفت أن أنفر مع هؤلاء ، وآثرت موقفا لأحمد
لنفسى ولا ألومها عليه وهو موقف الانتظار • وما أرى الا أنى سأخرج
من هذا الموقف كارها ان استطاع الموت أن يقتحم ما أعد له
الفرنسيون ليردوه عن هذه المدينة الخائفة ، فما أملك حياتى حين
يقدم الموت على باريس • على أنى أجد فى هذه المدينة الحالية التى
فر الناس منها ذعرا أو نفر الناس منها حفاظا ونجدة ، شيئا
من الشعر الرائع لا أستطيع تصويره ، وإنما أستطيع أن أقول
انه يملك على نفسى ويفهم قلبى افهاما ، ويحبب الى هذه الارض
كما لم أحب أرضا قط •

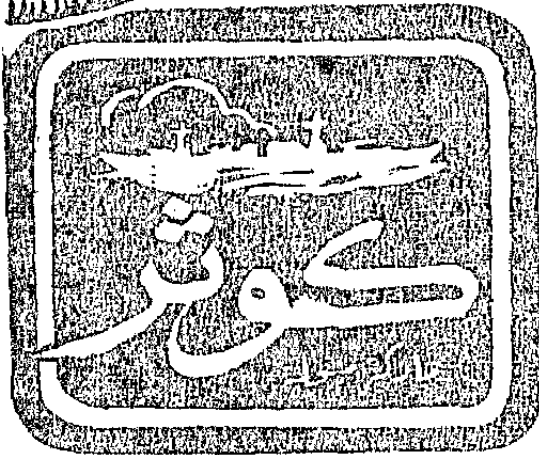
نعم ! وأجد فى مقامى فى هذه المدينة الحالية لذة لا أدرى كيف
أصورها ، وفخرا لا أعرف كيف أصفه • ومع أنى لم أنفر مع الناس
فقد يخيل الى انى شجاع ، فليس جبانا ولا ضعيفا القلب هذا الذى
لم يفر مع من فر ، ولم يعد الى مصر فيمن عاد من الطلاب ، ولم
يغير من امره شيئا فع ان كل شىء من حوله قد تغير ، وما زال
يتغير ، وإنما ظل فى مكانه هادى النفس مطمئن القلب ينتظر
الاحداث والخطوب لا خائفا ولا وجلا ولا مذعورا •

ولقد أخذت على نفسى عهدا ألا ابرح باريس مهما تكن الظروف ،
وستعلم أنى سأتى بهذا العهد مهما يكلفنى ذلك وان انتهى بى
الى الموت • وأى شىء يكون الموت فى سبيل باريس ! لقد آبيت ان
اكتب اليك فى وصفها وفى وصف الحياة فيها ، لان ذلك لم يكن
ميسورا ، ولانى كنت أرجو ان تقدم على باريس فأظهر لك على
ما أستطيع ان تظهر عليه من امرها • وقد تأخر قدومك ،
وكنت أحب أعلك بالحديث عن باريس • ولكنى عاجز حتى عن
هذا ، مشغول بالحديث الى نفسى عن الحديث اليك • فكم لى من

زجاجة
كبيرة
بشمن
الصنوبر



أصناف لذيذة
برتقال. ليمون
سيدر. زمان
فراولة.
الصنف الأول دائما



تليفون ٥٦٠٩٤

ساعات اخلو فيها الى نفسى حتى
تنقطع الاسباب بينى وبين كل
شئ ، وبينى وبين كل انسان !
والناس مع ذلك حولى يذهبون
ويجيئون ويموج بعضهم فى بعض ،
فأنا لا اخلو الى نفسى هذه الخلوة
فى بيتى وانما اخلو الى نفسى فى
الحدائق والمتاحف والقهوات حيث
يجتمع الناس ويزدحمون . أخاؤ
الى نفسى امام تمثال من هذه
التمائيل . أو عمارة من هذه
العمارات ، أو معهد من هذه
المعاهد التى يستقر فيها الجدد
خصسبا حافلا بالنفع والامل .
لا لأهل باريس ، ولا لأهل فرنسا ،
بل للناس جميعا . ومنهم هؤلاء
المدو الذين يقدمون على باريس
ومعهم الموت يريدون ان يصبوه
عليها صبا .

نعم ! واخلو الى نفسى امام
معهد من معاهد اللهو هذه التى
تستقر فيها الدعابة فتبعث
الفرح فى القلوب جميعا ، وتبعث
الابتسام على الشفوف جميعا ،
وتجدد النشاط للعمل وتحبب
الحياة الى الذين زهدوا فى الحياة
اخلو الى نفسى امام هذه
الاشياء التى اراها كنوزا للانسانية

قد حوت خير ما عند الانسانية من فن وادب . ومن فلسفة وعلم ،
ومن عمل وامل ، ومن تفكير وتدبر ، وروية ونشاط .
أخاؤ الى نفسى امام هذه الاشياء ، وافكر فى ان قوما
يزحفون عليها يريدون بها السوء ، ولا يكرهون ، واعلمهم يحبون ان
يمحقوها محققا . ويسحقوها سحقا ، ليفضوا من امر باريس ،
وليفضوا من امر فرنسا . دون أن يحفلوا بأنهم ان فعلوا
فسيفضون من امر الحضارة كلها ، وسيعانون فى القرن المئتين
كما أعلن آباؤهم فى اول التاريخ المسيحى ان عهد الحضارة والعلم
والفلسفة والتفكير والفن قد آذن بزوال ، وان الانسانية قد آن
لها ان تستريح من جهدها الخصب العنيف . وان تعود الى
هذه الراحة المجدية التى يملؤها النذل والعقم والهوان .

أخلو الى نفسى امام هذه الاشياء ، وأراها قائمة باسممة
نضرة ياموؤها الفخر والتيه ويزدهيها الامن ، ثم أراها وقد
مستها لفحة من لفحات العدو فاستحال ابتسامها عبوسا
ونضرتها ذبولا وكبرياؤها ذلا وخنوعا . واذا أنا مدفوع اليها
متصل بها ، فأنا فيها انعم لانها ناعمة ، وابسم لانها باسممة ،
وأبتئس لانها مبتئسة ، ويدركنى الموت لانه أدركها .

حرام على فراق باريس حتى اصير الى مثل ماتصير اليه ،
وأخرج معها من الاهوال بم تخرج به منها . ولتغضب الجامعة ان
شاءت أن تغضب ، ولتعرض الجامعة ان أحبت أن ترضى ، فقد
دعت طلابها الى مصر فعادوا سراعا وأكبر الظن أنها ستردهم الى
فرنسا بعد أن تستقر الامور شيئا ، ولكنها ستحول بينهم وبين
باريس لان باريس قريبة من الخطر معرضة له دائما . وسيعود
هؤلاء الطلاب وقد تقدم انت معهم ، وسيتفرقون من رض فرنسا
فى حيث يستقر الامن والسلم ، وفى حيث لاتصل اليكم يد العدو
ولا تبلغكم قذائفه . أما أنا فمقيم هنا لا اريم ، منتظر هنا مع
المنتظرين . ومن يدري ! لعلنى أخرج من هذا الانتظار الى العمل
فما ينبغى للرجل الكريم دى المروءة ان يعيش مع الناس ضيفا

عليهم مستمتعا بما يمنحونه من الامن آخذنا بأوفر حظه مما يبيعون له من لذة العقل والقلب والجسم ، حتى اذا ألت بهم الخطوب أو هجمت عليهم الاحداث ، فر عنهم مسرعا لا يلوى على شىء ، أو أقام فيهم جبانا أثرا خانعا لا يبتغى الا أن يعيش .

نعم ! ما ينبغي للرجل الكريم ذى المروءة والنجدة أن يسير هذه السيرة . وما كنت أحب للجامعة أن تلقى على طلابها هذا الدرس أو تدعوهم الى هذه السيرة ، وانما كنت أحب منها شيئا آخر . وأنا أعلم أن الجامعة أمانة على حياة طلابها مسئولة الى حد ما أمام أهل هؤلاء الطلاب ، ولكنى أعلم أيضا أن الجامعة لا تجبر من الموت ، وأن أهل الطلاب لن يستطيعوا أن يرجع عليها ان ألت بطالب من طلابها علة مهلكة أو عدت عليه عادية لامرد لها . وهل الحرب الا بعض هذه العلل والموادى ! وماذا تقدم الجامعة الى الناس حين تقدم اليهم هؤلاء الطلاب أساتذة قد فروا حين أقبل الخطر ، وآثروا الحياة على الموت حين كان الكرم والشهامة والنجدة وعرفان الجميل حين كان هذا كله يريد لهم على أن يسعوا الى رد الخطر كما سعى الفرنسيون ، أو يشبتوا لانتظار الخطر كما ثبت أنا ! انما تقدم اليهم أساتذة قد فروا من الخير الى الشر ، ومن الاشار الى الاثرة ومن الكرم والنبيل الى الذلة والهوان .

وأنا أعلم أنك أيها الصديق تنكر هذا منى ، وتراه جنونا أو تراه اسرافا . ولكن مارأيتك فى أنى أرى هذا طبيعيا ، وأصدر عنه حين أفكر وحين أعمل ، وفى أنى قد رفضت العودة حين عاد الطلاب الجامعيون ، ورفضت الهجرة حين هاجر الطلاب غير الجامعيين الى الاقاليم النائية وآثرت البقاء لم أجد فيه مشقة ولم أتكلف له جهدا . وسينقطع عنى من غير شك راتب الجامعة ، ولن أطلب العون من أهلى ، وما أحب أن تنبئهم من ذلك بشىء . وقد أتعرض للضرر ، وقد أذوق لذة الجوع . وما أرى بذلك بأسا ! فان معنى ملايين سيتعرضون لهذا الضرر ، وسيذوقون هذه اللذة ، وما أحب أن أسعد وهم أشقياء ، ولا أن أشبع وهم جياع . على

أنى لا أريد أن أغلو ولا أصورك نفسى فى صورة البطل .
فلئن نجت باريس من هذا الشر المحقق ، لآعودن الى ما أنا
فيه من حياة هادئة وادعة . ولئن ألت بها الكارثة لآكونن واحدا من
هذه الملايين التى تشقى . ولكنها لاتصور شقاءها فى الكتب ولا
تتحدث به الى الأصدقاء من وراء البحر ، وإنما تلقاه ثابتة له مطمئنة
اليه ، حتى تنفرج عنها الكربة ، وتزول عنها القمة ، وتنجاب عنها
ظلمة الليل . . ولعل أظهر ما تترك الحرب فى نفوسنا من الآثار أنها
تهون عليها الحياة ، وتزيل عنها هذه الأغشية التى نسجتها
الحضارة لها نسجا من الأثرة وحب اللذة والتهاك عليها ،
والطموح الى الترف ، والحرص على الأمن والاستمتاع بما يبيع
من نعيم . فكل هذا شئ مصنوع متكلف أنتجته الحضارة
انتاجا . وليس هو فى طبيعة الحياة ، وإنما طبيعة الحياة أيسر
من هذا وادنى الى السذاجة . إنما هى حركة ونشاط يعقبهما
سكون وخمود . إنما هى هذا الذى نراه فى غيرنا من الحيوان
الذى يتبع غرائزه آخذا من نشاطه بأعظم حظ يستطيعه ، حتى اذا
ألت به الكارثة أو تلقاه الموت لم ينظم شعرا ولم يكتب نثرا ، وإنما
انتظر الموت مدعنا له ، ودخل فى الفناء كما خرج منه ، لم يرد
الدخول فيه كما لم يرد الخروج منه .

نعم ! هذا أظهر ما تترك الحرب فى نفوسنا من الآثار . فنحن نتبع
غرائزنا أكثر مما نتبع عقولنا . نحن شجعان دون أن يكون لنا
فضل فى الشجاعة . ونحن مؤثرون دون أن يكون لنا فضل فى الأيثار .
ونحن جبناء وأثرون أيضا دون أن يكون علينا فى الجبن والأثرة لوم .
إنما نقدم أو نحجم لآنا ندفع الى الأقدام أو نسرده الى الأحجام ،
لا نرى من هذا ولا ذاك بدا . ذهب بالقياس إلينا كل فلسفة ،
وانحلت بالقياس إلينا كل قاعدة ، وأرسلت نفوسنا على سجيبتها
أرسالا . فنحن ننتهز الفرص حين نظفر بها ، ونستمتع باللذة
الى أبعد غاية الاستمتاع حين تتاح لنا ، لآنحاسب أنفسنا ولا نسألها .
وفيم الحساب والمسؤال ونحن لآنفكر فى العاقبة لآن فكرة العاقبة

قد محيت من نفوسنا محواً ، وما التفكير في العاقبة وما السؤال عنها ، ونحن نراها ساعية الينامشرفة علينا ، قد زلزلت الأرض من حولنا زلزالاً ! ليست هي في هذا الموت الذي يسعى الى باريس ويوشك أن يبلغها غداً أو بعد غد !

لست أدري الى أى عاقبة تنتهى هذه الحرب . ولست أدري لمن سيتاح النصر ، وعلى من ستقدر الهزيمة . ولكن الذى لا أشك فيه هو أن الناس سيقضون أيام الحرب والاعوام التى تليها متأثرين بالغرائز أكثر مما يتأثرون بأى شئ آخر ، مهدرين لما عرفوا من قيم الأشياء اهداراً ، مزدرين لما ألفوا من المثل العليا . وما أرى الا أنهم سينفقون دهرهم متمردين على العقل والخلق ، واجدين في هذا التمرد أقصى اللذة وأقصى الألم .

لست أدري أتفهم عنى ، فقد اقلت الظروف بينك وبينى حجباً كثافاً صفاقاً ، لعل الكلام لا ينفذ منها ، ولعل العقول لا تتصل من دونها .

حالياً بأسعار المصانع

قرصان النوم الفاخرة . البازارات الخشبية الراقية . الجوارب الناعمة المتنازة . الفساتين الأمريكية البهجة . فساتين ريشية للبنات . فساتين أطفال جميلة . وجميع انواع الملابس الراقية الخشبية ولوانم السيارات ..

بمحل



٦

عمل الذوق السليم والصرف العظيم وأسعار أخرى

أنت آمن وأنا خائف . أنت هادى وأنا مضطرب . أنت لاتخشى الموت وأنا أراه يسرع الى والى ماحولى ومن حوالى فى غير ريث ولا اناة . كم أحب لك أن تعبر البحر لتقرب من ميدان الخطر أو لتسمع حديث الذين دنوا من هذا لميدان ، أو الموابه ثم ردواعنه . فمهما تكن المدينة التى سترسل اليها بعد أشهر فستكون فيها قريبا من المئات والالاف من هؤلاء الجرحى الذين يوزعون توزيعا على ما أقيم فى فرنسا من المستشفيات ، وستسمع من هؤلاء أو من الذين يتصاؤون بهؤلاء أنباء الموت وأحاديث الحرب ، وستفهم انها خليفة أن تغير فى الحياة رأى الاحياء . أين أنا ؟ وماذا كنت أريد ان قول لك حين بدأت هذا الكتاب ؟ لقد أنسيت مكانى وأنسيت بدء الحديث . وهأنذا ألتفت عن يمين وشمال فأعرف المكان الذى أنا فيه والذى أكتب اليك منه . انها هذه القهوة التى يألفها الادباء فى حى مونبرناس ، والتى تعودت ان أختلف اليها ، وأجلس غير بعيد من أنديتهم ومجالسهم ، لأراهم حين يقبلون وحين ينصرفون ، ولاسمعهم حين يديرون بينهم هذه الدعابة لحواة ، وهذه الفكاهة ذات الاجنحة ، وحين يتناشدون الشعر، ويتبادلون الرأى فيه حول أقذاح الابسنت اذا دنا لظهور أو أقبل الليل ، وحول كؤوس الكونياك وأقذاح القهوة بعد الغداء وبعد العشاء . انى لأعرف نفسى فى هذه القهوة التى كانت وقفا أو كالوقوف على ادباء الحى اللاتينى . ولكنى أختلف اليها منذ أيام فلا أرى فيها خلق الادباء ولا أنديتهم ، وانما هى مزدحمة دائما تكتظ بالمقبولين عليها من كل صوب ، قد اختلطوا أشد الاختلاط ، وتباينت طبقاتهم أشد التباين . وهم يامون بالقهوة لا يطيلون فيها المقام، انما يلتقون ويفترقون ، ويصيبون بعض ما يحتاجون اليه من شراب بارد أو حار ، ثم يمضى كل منهم لوجهه . ومن يدرى ! اعلم لا يعودون الى هذه القهوة أبدا . ومن يدرى ! لعل الذين يلتقون فيها لا يلتقون بعدها اليوم أبدا . وباريس كلها فى هذه الايام تشبه هذه القهوة ، يلتقى فيها ناس سراعا ويفترقون سراعا . كلهم

معجل ، وكلهم قلق ، وكلهم يستقبل الساعة التي هو مقبل عليها غير حاسب للساعة التي تليها حسابا ، لان حساب الساعات لم يبق في أيدي الناس وإنما صار الى يد « أم قشعم » ألسنهم تزعمون ان أم قشعم هي الحرب ! تعال أيها الصديق فانظر اليها وابل سلطانها على النفوس ، فسترى وستسمع وستحس أشياء لا صلة بينها وبين ما تقرأ في شعر زهير .

وداعا أيها الصديق . لقد ذكرت الان فيم اقبلت الى هذه القهوة . فهذه « ألين » تقبل على مبتسمة في هذه الايام التي لا يفهم فيها معنى الابتسام ، وأنا أبتسم لها . ولا تسألني عن ألين ، فالله قد نهاكم أن تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم . وما أحب أن أسوءك بحديث ألين ، فيكفي أن تعلم ان صديقك الذي كان جادا كل الجدة ، منصرفا الى الدرس كل الانصراف ، قد فارق اللذة وطلق الحب وقطع الاسباب كلها بينه وبين حميدة وفرنند . يكفي أن تعلم أن صديقك هذا قد فارق الجدة وقطع الاسباب بينه وبين الدرس ، ووصل الاسباب بينه وبين ألين . ولن أحدثك عنها ما دمت هذه الاسباب موصولة ، فاذا انقطعت فسيطول بينك وبينى الحديث . فانت تعلم اني لا أحدثك عن رخصاي حين أرضى ، وإنما أحدثك عن شقائي حين أشقى ، فتمن لي الشقاء ان حرصت على أن أتحدث اليك .

وداعا أيها الصديق ! ان ألين تضيق بانصرافي عنها اليك ولئن مضيت في هذا الحديث لتمزقن كتابي اليك تمزيقا . فلأنصرف عنك اليها ، ولاستقبل معها حياة المساء في باريس المضطربة . فمن يدرى عم يسفر لنا الصباح .



ديسمبر في . . .

وكذلك عبرت البحر في أيام الحرب وفي فصل الشتاء ، ولقيت من عبوره هذا الشر العنيف الذي خلقت له لنفسك خلقا ، وخيلته

اليها تخيلا ايها الصديق . فما كانت سفينتك معرضة لخطر الغواصات . ولو عرفت الجامعة انكم تتعرضون لهذا الخطر ما أرسلتكم الى فرنسا ، فهي حريصة على حياتكم حرصا شديدا . وما كانت سفينتك على صغرهما وطول العهد عليها معرضة للغرق ولا لان تحطمها الامواج . فلو كانت تعرض لشيء من ذلك لما أذن لها بالعمل في البحر . وانما انت رجل من أبناء الريف لا تعرف المخاطرة ولا المفامرة ، فكل جديد عندك خطير ، وكل مشقة عندك مشرفة بك على التهلكة . وها انت ذا قد نجوت من الخرق ، فلم تنسفك غواصة ولم يطغ الموج على سفينتك . فأنعم بهذه النجاة ، وأنعم بالوصول الى فرنسا والاستقرار فيها والاختلاف الى جامعة مونبلييه ، وأنعم بما قدر لك من أمن وهدوء ، فلن يبلغ الالمان مونبلييه . وأنى لهم أن يبلغوها وهم قد ردوا عن باريس كما علمت ردا عنيفا ، وهم قد اضطروا الى هذه الحياة التي يحيونها في الخنادق ينتظرون أن ينحسر الشتاء ليستأنفوا الهجوم ، وينتظر عدوهم من الفرنسيين أن ينحسر الشتاء ليستأنفوا الدفاع العنيف وليخرجوهم من أرض الوطن اخراجا !

اهنا بهذا الامن في مونبلييه وان كنت لا أفهم ام وجهتكم الجامعة اليها وصرفتكم عن باريس . فليست باريس أقل أمنا من مونبلييه بعد ان رد الالمان عنها ردا وقد كسرت حديثهم وقلت عزائمهم ، فلن يبلغوها بعد اليوم مهما تتح لهم القوة ومهما يواتهم الحظ . ولكنكم قوم تحسنون الاحتياط وتفلون فيه وتتجنبون حتى مظنه الخطر . فلتنعموا بما أتىكم من هذا الحذر الذي لن يغني عنكم من الله شيئا . ولكنني أحب لك ألا تخدع نفسك بالاماني ولا ترسلها مع الغرور ، ولا تخيل اليها أنك تعيش في فرنسا تلك التي عرفناها قبل الحرب ، فان فرنسا تلك ليست في المدن ولا في الاقاليم ولا في باريس ، وانما هي في ميدان القتال ، تواجه الموت وتبسم له

بعد أن كانت من قبل توجه الحياة وتبسم لها . ستسمع العلم ولكن من أساتذة شيوخ عجزوا عن حمل السلاح إلى الحروب فأقاموا في الجامعة يعلمون . وستختلف إلى الدروس ولكن مع طلاب من الغرباء لا حظ لهم مما كان يملأ نفوس الفرنسيين من فرح وروح ونشاط . ستعيش في بيئة مظلمة مكفهرة ، فيها مل وكنه بعيد ، وفيها خوف ولكنه قريب . فيها أمل في فوز فرنسا ، وفيها خوف على أبناء فرنسا . وفيها يأس لاذع يتردد بين ذلك الأمل وهذا الخوف . والحياة في هذه البيئة لا تخلو من لذة وعبرة ومتاع ، ولكنك لا تستطيع أن تباوها كما ينبغي ، لأنك لم ترفرنسا الفرح المبهجة الآمنة لتقيس إليها فرنسا المحزونة المكتئبة الحائرة . أفرغ اذن لعلمك ودرسك ، وامنح أكثر وقتك للكتب ، وأجل معرفا فرنسا انى حين ، فانك ان تعرفها حق المعرفة الا بعد أن تضع الحرب أوزارها . ومتى تضع الحرب أوزارها ؟ .

ما كنت أظن أن حب الاستطلاع يسيطر عليك إلى هذا الحد ذهبت فيما زعمت إلى فندق جنيف حين انتهيت إلى مرسيليا ، وكنت تظن لك ستلقى فيه فرنند . ويحك ! وهل تبقى فرنند في فندق واحد كل هذا الأمد البعيد ! من يدري أين فرنند بعد ما مضى من الزمن ، وبعد ما اضطربت شئون فرنسا وشئون الأرض كلها هذا الاضطراب ، وماذا كنت تريد إلى فرنند ؟ وعم كنت تريد أن تسألها ؟ لقد أنبأتك بما وسعنى أن أنبئك به من أنبائها ، فهل كنت تريد أن تمتحن ذوقى أم هل كنت تريد أن تعرض نفسك لمثل ما عرضت نفسى لا من المحنة ؟ انك لست في حاجة إلى فرنند ان كنت تريد أن تبلو مثل ما بلوت ، فأمثال فرنند كثيرات فى كل فندق وفى كل مدينة وفى كل بيئة . فاحذران تتعرض لكرهن ، وارقى نفسك عن هذا الشر الذى غمست نفسى فيه ، والذى لا أستطيع أن أخلص منه مهما بذل من جهد واتكلف من عنا لقد صدق « موسىه » حين شبه قلب الرجل النقى بالإناء

العميق ، اذا استقر الدنس في فاعة فليس الى تطهيره من سبيل ، ولو مر به ماء البحر كله . ان قلبي هو هذا الاناء ، وقد استقر في قاعه هذا الدنس . ولقد حاولت تطهيره ما استطعت الى ذلك سبيلا : بالتفكير والتدبر ، بالقراءة والدرس ، بالجد والنشاط ، بهذه المشل العليا التي كنت اتخذتها وأجد في السعى اليها ، وأوفق أحيانا في هذا السعى بما حاولت من ارضاء الاساتذة ، وبما حاولت من ارضاء مراقب البعثة ، وبما حاولت من ارضاء الجامعة ، وبما بلغت من هذا كله ، ولكني مع ذلك لم أستطع أن أمحو من قرارة نفسي هذا الدنس الذي استقر فيها فلزمها لزوما ، واتصل بها اتصالا لا انقطاع له .

لقد خيل الى في بعض الاوقات أنني قد خلصت من الشر وبرئت من الاثم ، وارتفعت عن النقيصة ، وأنى قد كفرت بالمرض الطويل الثقيل المهلك عما اقترفت من السيئات ، وأنى قد طهرت نفسي بالعلم تطهيرا ، وكرمتها بالدرس عن كل ما يفسدها ويشينها ، وأخذت أكبر نفسي وأغالي بها ، ولكنني تبينت بعد ذلك أن الحياة غرور كلها ، وأن القضاء نافذ بالغ أجله مهما نفعل ومهما نحاول . وقد عرفت قضاء الله في أمري . فأنا رجل موكل بالجد واللهو معا ، أبلو اللذة حتى أصل الى أقصاها ، وأبلو الالم حتى انتهى الى غايته ، أقبل على العلم حتى كأنى لم أخلق الا للعلم ، ثم أقبل على اللهو حتى كأنى لم أخلق الا للهو . أقبل على العلم فلا يصرفني عنه صارف مهما يكن ، وأقبل على اللهو فلا يشغلني عنه شاغل مهما يكن . يتاح لى الفنى ويام بى الفقر ، فلا يمنعنى هذا ولا ذاك من المضى فى العلم ان كنت مقبلا عليه ، ولا من المضى فى اللهو ان كنت منصرفا اليه . وقد عرفت الين - ان كنت تذكر الين - من أمرى هذا كله ، فقبلته منى وجارتنى فيه ، وأخذت ان راتنى مقبلا على العلم تهملنى حتى كأنها لم تعرفنى قط ، وان راتنى مقبلا على اللهو تمنى بى حتى كأنها لم تعرف غيرى قط . وأنا ياسيدى كما ترى لعبة تتقاذفها معاهد العلم ومنازل اللهو . وقد بقى لى

شيء من ارادة ، فأنا أنفقه في تنظيم امرى على وجه ما ، وأود لو استطعت أن ألثم بين هذين العدوين اللذين يختصمان في اختصاصا ، وأود لو استطعت أن أقسم وقتى وجهدى بينهما قسمة عادلة ، فللعلم شطر منهما واللهو شطر آخر . فمن يدري ! لعلنى ان وفقت لهذه لقسمة أن أصلح مزاجى بعض الإصلاح ، وان أنظم امرى بعض التنظيم ، وأن أنتهى الى نتيجة أرضاها وأرضى بها من لا بد أن أرضيهم من الناس . وقد أخذت فى هذه التجربة منذ أسابيع ، وأنا أبذل فيها جهدا عنيقا وألقى فيها شططا شديدا ، وأخشى كل الخشية الا أوفق لشيء . لقد أخذت أدرس اللاتينية ، ورتبت نظام الدرس مع الاستاذ ترتيبا رضىه وأقره ، فلما أخذنا فى تنفيذ ما اتفقنا عليه لم نجد الى ذلك سبيلا . ولو أنك سألته عنى لانبأك فى يأس وحزن بأنى أكسل الناس وأنشط الناس ، وبأنى أقدر الناس على العمل وأعظمهم حظا من التوفيق ، وبأنى أعجز الناس عن الجهد وأعظمهم نصيبا من الخيبة . أما فى أول امرنا فقد كان لا يزورنى الا وجدنى مستعدا للقاءه متهيئا لدروسه ، وكان يزعم لى أنى سأقدم للامتحان فى وقت قريب وسأفوز فيه فوزا مبينا . ثم تمضى أسابيع ، وإذا أنا قد صرفت عن العلم ودفعت الى اللذة ، وأفلت من السوربون وازمت ذراعى الين . ويزورنى الاستاذ للدرس مع الظهر فيجدنى مفارقا فى النوم لأنى أفنيت الليل ووجه النهار فى اللهو والعبث والمجون فيستئس اذا تكررت زيارته فى غير جدوى .

ولكنى أفرغ له بعد حين ، فأسعى اليه وألح عليه ، وأعوض ما فات وأصلح ما فسد ، وأرضيه بعد سخط . وعلى هذا النحو تمضى حياتى منذ حين ، ولم يزلها شجوب الحرب الا مضيا فى هذا النحو من الفساد والاضطراب . فقد محت الحرب من نفسى كل ثقة ، وذادت عنها كل يقين ، وأهدرت فيها كل قيمة للعمل والامل والحياة . فأنا أحيا لغير شيء ، أو قل لاني لا أحيا ، وإنما أنتظر شيئا مجهولا لا أعرفه ولا أريد ان أعرفه ،

بإستقبال
العام الجديد

شجرة الغيب

تتضاعف

التي تضرع

الكبرى

محلات

في فروعها الثلاثة : جناح عماد الدين - جناح فؤاد الاول - جناح النفوس

وتعرض فيها

اهديت واروع المبكرات العالية من الأصواف والأقطنات

الحرير . الفرار . المفروشات . السجاد . منط الفراء الأهمزية

ملابس جاهزة للسيدات من ابتكار دور الأزياء العالية

ملابس جاهزة للرجال .. أسعار فاصلة

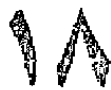
للاقبال المزامنة أكراما للعام الجديد السعيد

فرع النفوس ٧٧٧٣٦٦ - فؤاد الاول ٧٧٧٣٤٤ - عماد الدين ٧٧٣٦٥

ولو قد أردت لما استطعت . وأنا انتظر هذا الشيء المجهول
 كما أستطيع أن أنتظره ، مستعينا عليه بالعلم والجهد حين أفرغ
 للعلم والجهد ، وباللهو والعبث حين أنقطع للهو والعبث . وقد
 يتاح لى أن أفكر فى ذلك ، وإن أمتحنه واحاول أن اتعرف
 أسبابه ، فأشعر بأن نشأتى فى مصر هى التى دفعتنى الى هذا
 كله دفعا وفرضت هذا كله على فرضا ، لانى لم أنشأ نشأة منظمة ،
 ولم تسيطر على تربيتى وتعليمى أصول مستقيمة مفررة ، وإنما
 كانت حياتى مضطربة كلها أشد الاضطراب ، تدفعنى الى يمين
 وتدفعنى الى شمال ، وتقربنى أحيانا بين ذلك ، ولو أنى بقيت
 فى مصر لانفقت حياتى كلها كما بدأتها فى هذا الاضطراب المتصل
 فى غير نظام والى غير غاية . ولكنى عبرت البحر الى بيئة لا
 يصالح فيها الاضطراب ، ولا تقوى على الحياة فيها نفوسنا
 الضعيفة المضطربة ، فلم أحسن لقاءها ولم أحسن احتمال الانتقال
 فيها ، ولم أحسن الخضوع لما تفرضه من نظام واطراد . ثم
 كانت الحرب واضطربت الدنيا ، وأضيف فى نفسى فساد الى
 فساد واضطراب الى اضطراب ، ففقدت نفسى محورها - أن
 صح هذا التعبير - وأصبحت لعبة تتقاذفها الالهواء .

ما أشد حاجتى الى قربك أيها الصديق ! فقد تقدر على أن
 تنفعنى ، ولكنى لا أستطيع أن أفر اليك من باريس ، فالموت
 أهون على من ترك باريس ، ولا أستطيع أن أنقلك الى حيث أنا ،
 فالجامعة تحول بينك وبين هذا الانتقال . وانى مع ذلك لاخشى
 على نفسى كل شيء ، وانى مع ذلك لاظن انى لن أعود الى مصر
 - أن عدت اليها - سالما موفورا العقل مستقيما الملكات قادرا على
 النفع والانتاج .

فلينفذ القضاء اذن ، ولتتم كلمته . فلئن ذهبت فى غير نفع
 فما أكثر الشبان الذين يذهبون فى غير نفع هذه الايام !



ينابر فى ..

ان ظننت أيها الصديق ان فى بقية من عقل او فضلا من
 ارادة ، فانف عن نفسك هذا الظن نفيا . فالبرهان يقوم لى

كل يوم على انى أسعى الى الجنون فى سرعة تزداد بين حين
وحين، كما تزداد سرعة السقوط بالجسم الذى يهوى الى الارض
بين ثائية وثائية . فان كنت فى شك من ذلك فاعلم انى أنفقت
فى القراءة وفى القراءة وحدها اجازة عيد الميلاد ورأس السنة على
حين كان الناس ينصرفون الى ما ينصرفون اليه فى هذه الايام التى
هى أيام بهجة وعيد عادة ، والتى يشوبها الحزن والالام . هذه
المرة كنت أنا عاكفا على « سيسرون » و « تاسيت »
قراءة وفهما وترجمة . . وكنت أجد لذة فى هذه الليالى التى
أنفقها من وراء الباب مع الكتاب القدماء والشعراء القدماء ، على
حين يحيا الناس حياتهم ويجدون فيها ما يجدون من اللذات
والالام . وقد أنسيت كل شئ وأنسيت كل انسان . ولولا أن
الخادم كانت تحمل الى الطعام أو تدعونى اليه لأنسيته أيضا .
وقد انقطعت الصلة بينى وبين الين فى هذه الايام التى كان يجب
أن تقوى فيها الصلة وتكون بمأمن من الضعف والفتور .
ثم انقضت الاجازة ، وجعلت اختلف الى السربون ، فسمعت
درس اللاتينية وظفرت بثناء الاستاذ وخرجت ولكنى لم
أذهب الى بيتى ، وإنما ذهبت الى حيث ألقى الين . وقد
انقيتها ، وأنفقت معها اليوم بعيدا عن باريس فى غابة من هذه
الغابات الجميلة القريبة ، ثم عدنا ولم نفرق الا لنتلقى بعد
قليل . وأنا أختلس هذه الدقائق لاكتب اليك ، ولاظهرك من أمرى
على أطوار هذا المرض الذى يسعى الى ، أو يسعى فى سعيا
حشيشا . وثق بأن السربون لن ترانى غدا ولا بعد غدا ، بل ثق
بأنى لا أعلم متى ترانى السربون

وداعا يا سيدى . انى لارى شبح الجنون بفيضنا مزعجا ،
ولكنى مع ذلك لا أمابه ولا أتأخر عنه ، وإنما أقدم عليه اقدام
المحب الجرىء . وكيف أحجم عن الجنون وقد اتخذ لنفسه
صورة الين !

يوليو في . . .

لم يكن الامتحان عسيراً ، ومع ذلك فقد أخفقت فيه
أجمل اخفاق وأروع ، هذا الاخفاق الذي لا يظفر الطالب
فيه بدرجة أو بعض درجة ، وإنما يظفر فيه بالصفير المريح .
ولن تعلم الجامعة من أمر هذا الامتحان شيئاً ، فقد تقدمت اليه
سراً ، فلن أؤدى لها حساباً عن مال لم تنفقه وأمر لم تحط به
علماً . لم أكن أشك في الفوز ، فقد وعدنى به أستاذى الخاص
الذى أتعلم عليه اللاتينية ، ووعدت نفسى به وتهيأت له
كأحسن ما يتهيأ طالب الامتحان . ولكن أدركتنى نوبة المرض أو
نوبة اللهو - ان أردت الدقة في التعبير - قبل موعد الامتحان
بأسبوعين ، فقضيت هذين الأسبوعين مع الين ، نهيم في
الغابات اذا كان النهار ، ونطوف على الحانات اذا كان الليل ، ولا
قلم بالبيت الا مطلع الفجر .

كانت الين تذكرنى بموعد الامتحان ، وتحذرنى عاقبة هذا
الجنون ، وتصور لى جمال الفوز ، وتمنئنى تلك الايام الجميلة التى
سستنقها بعيداً عن باريس اذا كان الصيف . ولكنى كنت أعرض
عنها أشد الاعراض ، وأزجرها أشد الزجر . فقد كان شيطان
اللهو قد ملأ قلبى ونفسى وركب كتنفى .

ثم أصبح يوم الامتحان فلا أتردد فى الذهاب الى السوربون
ولا فى دخول حجرة الامتحان ، وأخذ النص اللاتينى فأقرؤه
وأقرؤه ، ثم أقرؤه وأقرؤه ، فلا أفهم شيئاً ولا اصنع شيئاً .
وأنا أبذل جهداً عقلياً عنيفاً لعلنى أوفق لفهم جملة أو بعض جملة ،
فاذا لم أظفر بشئ رددت النص كما أخذته ، وانصرفت الى بيتنى
راضياً محزوناً معاً . ثم لا أكاد أخلو الى هذا النص بعد ذلك
بساعة أو ساعتين حتى أفهمه فى غير مشقة وأترجمه فى غير
جهد ، واستوثق من انى كنت خليقاً أن أفوز واذا قلبى يمتلىء

سرورا وبهجة ، واذا أنا أسرع الى الين فأنبئها بأنى جمعت بين
الفوز والاختاق معا .

وداعا يا سيدى ! سأنجح فى نوفمبر اذا لم يدركنى الشيطان .
فأما الان فالى اللهو ، الى اللهو المجنون الذى لا يعرف رفقا
ولا مهلا ولا تفكيرا . الى اللهو حتى يضعف العقل والجسم
معا ، وحتى أضطر الى الراحة ثم الى الجدا اضطرارا .



سبتمبر . . .

واذن فقد زرت فرنسا وأقمت فيها ، واستعود الى مصر ولم
يكن بينك وبينى هذا اللقاء الذى كنت أرجوه . ولست أدري
أيسوؤك هذا أم لا يسوؤك ، ولكنى أعلم انه يسوؤنى حقا ،
فقد كنت حريصا على لقائك بعد أن طال افتراقنا ، وقد
كنت حريصا على لقائك لاستعين بك على نفسى وعلى ما يدهمها
من الاحداث والخطوب . ولكن الجامعة أبت أن يلتقى ، وأبت
الظروف أن تطول إقامتك فى هذا البلد حتى تتاح لنا فرصة اللقاء .
وانى لأرجو أن تتاح لك عودة قريبة ، فما أرى أنك قد زرت
فرنسا ولا انتفعت بزيارتها ، وما أظن إلا أنك ستعود وفى
نفسك حسرات لا تنقضى . فليس من الهين أن تدنو من
الغاية ثم ترد عنها أردا ولا أن تشارف الأمل ثم تقطع بينك
وبينه الأسباب . ولست فى حاجة الى أن انبئك بأنى قد
رفضت الإذعان لأمر الجامعة ، وأبیت أن أعود فى هذه المرة كما
أبیت ذلك فى العام الماضى . وكيف تريدنى على أن أعود وقد أنفقت
أعواما فى فرنسا ، ثم لم اصنع شيئا تحسن العودة والاطمئنان
اليه ، وانما كان حظى من الفساد والشر أكثر من حظى من الصلاح
والخير ! وماذا تريد أن أقول حين أعود الى مصر فأسأل عما
صنعت ؟ أأحدث الناس عن فرنند والين وما لقيت عندهما
مما أحسب وما لا أحب ؟ أم أحدث الناس بذلك المرض الذى

الح على جسمي حتى أشرف بي على الموت ؟ أم أحدثهم بهذا المرض الذي الح على عقلي حتى أشرف بي على الجنون ؟
لا ياسيدي ! ان العودة الى مصر شيء لم يقدر لي بعد ، ولو أنني بلغت من مقامى فى فرنسا كل ما أريد لما رضيت هذه العودة ولا أحببت اليها . فأنت تعلم انى قد نذرت الا أترك باريس حتى أصير الى ما تصير اليه ، وحتى أرى مخرجها من هذه الحرب كيف يكون . وما أبعد الامل بيننا وبين آخر الحرب كما ترى ! فأسباب مقطوعة بينى وبين مصر حتى تنكشف هذه الغمة . وهب كل شيء يجرى كما أحب ، فكيف أعود الى مصر دون أن أصطحب اليين وليس لى الى الحياة سبيل اذا لم أكن قريبا من اليين ، أراهما متى شئت وترانى متى أحببت ، وأفزع اليها حين أضيق بحياة العمل والجد ، والين فرنسية لا تريد أن تهجر وطنها ، ولأن تفارق باريس وان أعطيت ملء الارض ذهباً . فاقامتى فى فرنسا قضااء محتوم لا مندوحة لى عنه . وشهد الله ما أجد لذلك ألماً ، وانما أجد فيه اللذة كل اللذة . فاقراً تحيتى على مصر ان شئت ، ولا تحدث أصحابنا بشيء من أمرى . وان سألك أهلى عن بعض أمرى فقل لهم ما يخطر لك ، ولكن احذر أن تنبئهم من حقيقة أمرى بشيء ، فما ينبغى أن نشق على هذين الشيخين ، وما ينبغى أن نشمت بناء الشامتين .

وبعد فان أمور مصر محزنة حقاً . أليس مما يسوء ويحزن ان يعجز هذا البلد السعيد الناعم بالسلم ومنافعها عن أن يمد الجامعة من المال بما يمكنها من استبقاء بعوثها فى أوربا حتى تتم ما أرسلت من أجله ؟

أو ليس مما يحزن ويسوء أن نرى هذه الجهود الضخمة الشاقة التى تبذلها الشعوب الصغيرة كتبت للحرب وتحتل انقالاتها ونفقاتها ، وتضحى فيها بما تضحى به من الانفس والاموال ، وان نرى مصر عاجزة أو بخيلة لا تستطيع أو لا تريد أن تنفق على عشرة من أبنائها يدرسون العلم فيما وراء البحر ؟ ولكن ماذا ينفع الحزن والاسى ، وماذا يجدى اللوم والتقريع ؟ لا بد

مما ليس منه بد . عد الى مصر فانت مضطر الى أن تعود . ولا بق
أنا في فرنسا ، فأنا مكره على أن أبقي . وسنرى ايتاح لنا أن
نلتقى ، وأين يتاح لنا أن نلتقى .
وداعا أيها الصديق وان لم يكن بيننا لقاء .

٢١

وأعود الى باريس بعد ثلاثة أشهر قضيتها في القاهرة فأرى
صاحبى ، ولكنى لا أكاد أعرفه لولا صوته الذى لم يتغير ولسولا
ضحكاته العراض التى لم تهذبها الإقامة في باريس ، فأما غير ذلك
من أطوار نفسه فقد تغير حتى أنكرته أشد الإنكار . فصاحبى
محزون مفروق في الحزن ، حتى ليفسد عليك رأيك في الحياة ان
لقيته في هذا الطور . وصاحبى مسرور مفروق في السرور ، حتى
ليثير في نفسك الاشفاق عليه من هذا الاغراق في السرور ان
لقيته في هذا الطور أيضا . وصاحبى ينتقل من الحزن الى السرور ومن
السرور الى الحزن فجأة في غير تهيو ولا تدرج ولا انتظار لهذا
الانتقال . وانما أنت مع رجل بائس يائس ، سيئ الرأي في
الحياة والاحياء ، قد أظلم كل شيء في وجهه وفي نفسه ، فليست
تسمع منه الا شرا ونكرا . واذا أنت ترى هذا الرجل وقد وثب
فجأة من نقيض الى نقيض وأصبح فرحاً مرحاً ، منطلق اللسان بالثناء
على كل أحد وعلى كل شيء ، ممتلىء الفم بهذا الضحك المزعج الغريض ،
لا يتكلم هادئاً ولا يتحرك هادئاً ، وانما هو عنيف في لفظه ، عنيف
في حركته ، عنيف في كل شيء ، حتى انه ليلفت اليه واليك الناس ،
وحتى انه ليخيفك من أن ينكر الناس مكانكما ويدعوكما الى
الصمت والى ايثار الهدوء .

وصاحبى ان حزن لا يعدل بالكتاب شيئاً ، وصاحبى ان سر
لا يعدل بالشراب شيئاً . وهو مسرف في صحبة الكتاب يأخذ
المجلد الضخم فلا يكاد ينصرف عنه حتى يزدرده ازدرادا . وصاحبى
مسرف في الشراب اذا أقبل الليل عليه لم تكفه الزجاجة ولا الزجاجة
من معتق النبيل ، وانما يشرب حتى يعجز عن الشرب . وهو

لا يعجز عن الشرب الا حين تعجز يده عن تناول الزجاجاة وصب شيء من روحها في القدح . واذا انتهى العجز بصاحبي الى هذا الحد لبث مكانه لا يريم ، نائما كالمستيقظ ، ومستيقظا كالنائم حتى تنجلي عنه الغمرة بعد ساعات . وصاحبي يختلف الى السوربون قليلا ولا يكاد يختلف الى القهوة ، ولكنه يلزم بيته في اكثر الوقت . وقد يستخفى اليوم او الايام لانعلم ابن هو ، ثم نلقاه فنسأله فينبئنا بأنه كان مع الين . ولم يتح لاحد من اصحابه ولم يتح لى بالطبع ان نرى الين هذه او نسمع منها او نتحدث اليها ، حتى لقد كان يخيل اليها انها شخص من أشخاص الاساطير قد خلقه صاحبنا لنفسه خلقا في وقت من اوقات مسكرة ولهو . ولكنه كان يحدثنا عنها فيطيل الحديث ، وكانت احاديثه لاتصور شخصا مخترعا ، وانما تصور شخصا حيا يذهب ويحيى ، ويعبث ويلهو ويعين على العبث واللهو ، ويدفع اليهما احيانا . وكثيرا ما ألححنا على صاحبنا في ان يعرفنا الى الين او يعرفها الينا ، فلم تكن تلقى منه الا اباء واعراضا . وكان يقول : ان حب الاستطلاع اثم ، فما تريدون الى الين ؟ انى احداثكم من امرها بما يعنيكم وما لا يعنيكم ، والين صاحبتى انا لاصاحبتكم انتم ، ولن يكون لكم منها الا هذا الذى تسمعون عنها ، وانه لكثير اكثر مما ينبغى . وكثيرا ماجد بعض اصحابنا في تتبعه والبحث عن الين فلم يظفر بطائل . ولولا انى رأيت الين بعد ذلك لما شككت فى انها كانت شخصا من اشخاص الخيال .

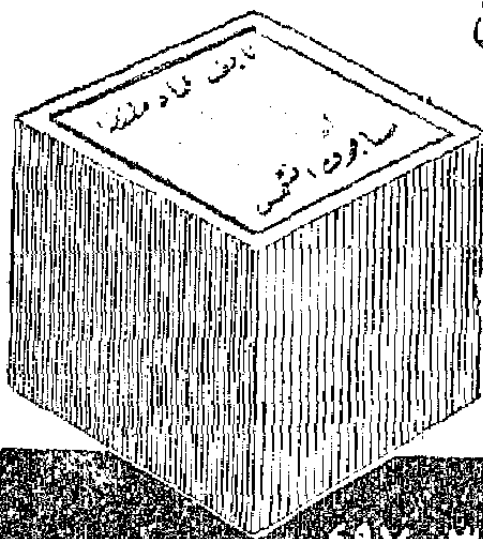
وقد أنفقنا عاما دراسيا كاملا على هذا النحو ، القى صاحبي بين حين وحين فأنكر من امره اكثر مما اعرف . ولاتتصل بينه وبينى تلك الاحاديث التى كانت تتصل بيننا فى القاهرة والتي كانت لاتنقضى ، وانما تلتوى وتعوج ، وتخرج بنا من موضوع الى موضوع ومن رأى الى رأى ، حتى اضرع اليه فى ان يقفها لانه اعيانى واجهدنى حقا .

لم تكن تتصل بيننا هذه الاحاديث فى باريس ، انما كان



منازل العيش

أجود الأصناف وأكثرها
انتشاراً في الأسواق



انتاج

مركز صناعة النسيج والحرير في القاهرة

ب.م.م

سابقاً فايف عماد

المركز الرئيسي : طيات ٣١ - ٤٩٢
فرع القاهرة : ٢٥٤١٠ - فرع الإسكندرية : ٢٦١٥٩

يلزم بحديث عن السوربون قليلا ويطيل الحديث عن الين ، مثنيا عليها حيناً ، شاكيا منها حيناً آخر ، واصفا محاسن جسمها ومحاسن نفسها دائما .

ثم يفرق الصيف بيننا ، فأذهب انا الى الجبل ، ويقيم هو في باريس لا يكاد يفارقها الا الى ضاحية من الضواحي او غابة من الغابات ينفق فيها النهار او بعض النهار مع الين .

ثم تعود الى باريس آخر الصيف وقد قدمت اليه النبأ بعودتي فاذا بلفتها لم ألقه ، فاذا انظرته لم يسمع الى ، ولكن صاحبة الباب تصمد الى ذات صباح وتدفع الى قطعة من الورق ما اشك في انها قد اقتطعت من علبة من علب السجائر وقد كتب عليها بخط مضطرب هذه الكلمات : « صديقك مريض ينتظر عيادتك » .

فأسرع اليه فأراه ، ويأشروا اراه ! أرى صاحبى مريضا لا تظهر عليه آثار المرض ، ولكنه مؤمن كل الايمان بأنه مريض ، لا يشكو شيئا ، ولكنه واثق كل الثقة بأنه مريض . قد عرض على الاطباء فلم ينكروا من غيبته شيئا ، ولكنه مقتنع كل الاقتناع بأنه مريض وبأن الاطباء مخطئون . ولا أكاد اتحدث اليه واتبسط معه في الحديث حتى أستيقن انا ايضا أنه مريض وان مرضه أخطر جدا مما يظن ومما كنت أقدر ، فقد انتهى الى الجنون الذى كان يخشاه او الى شىء قريب جدا من هذا الجنون .

كان يتعمد الى فى أمر السوربون أو فى أمر الين فيستقيم الحديث استقامة حسنة ، ولكنه لا يكاد يسمع فى الجو أزيز الطيارة - وما كان أكثر ما يسمع أزيز الطيارات فى باريس - حتى ينهض بل يشب ويهم بالخروج . فاذا سألتها ما خطبه ؟ أجاب : ألسنت تسمع أزيز هذه الطيارة فانه دعاء الى الخروج .

وكان قد استقر فى نفسه أن الصحف الفرنسية كلها مجمعة على مقتله وبغضه والكيد له . وكان يشتري منها أكثر ما يستطيع شراءه ، وينفق فى قراءتها أكثر وقته ليتبين هذا الكيد الذى تكيده

له ، وهذا المكر الخبيث الذى تمكره به ، ولم يكن يلقي فى ذلك كبير جهد ، فقد كان هو ألمانيا ، وكان كل ما تذكره الصحف عن ألمانيا موجهها اليه ومنصبا عليه انصبابا . وكان يؤذيه من أمر هذه الصحف أنها لا تعرف له حبه لفرنسا ووفاءه لباريس وإقامته فيها حين تفرق عنها الناس . ما أشد جحود الفرنسيين للجميل وكفرهم لصداقة الصديق !

ثم يعظم الأمر قليلا قليلا ، وإذا الحلفاء جميعا يمكرون به ويكيدون له ويدبرون له السوء . ولم لا ؟ أليس الحلفاء يحاربون ألمانيا وهو ألمانيا ! وأصبح ذات يوم مرتاعا حقا ، فقد جاء النبأ - ولست أدري كيف جاءه ولا من أين جاءه - بأن الحلفاء يأتمرون به لينفوذ إلى المغرب الأقصى . وهو ينبئني بأنه قد جسد فى السعى لصرف الحلفاء عن هذا الاثم العظيم والظلم القبيح ، فكتب إلى جماعة من أساتذته فى السربون وإلى جماعة من كبار السياسة فى مجلس النواب والشيوخ يقص عليهم القصة ويستعينهم على اتقاء هذه الكارثة وهو ينتظر ردهم عليه ، ولكنه ضيق بباريس هذه الخائنة الماكرة التى لا تعرف جميلا ، ولا ترعى حقا ، ولا تحفظ ود الصديق ، والتى هى فى حقيقة الأمر صورة صادقة لهذه الفتاة الخائنة التى كانت تسمى الين والتى قد جحدت حقه ونسيت مودته وأعرضت عن حبه اعراضا ، وأخذت تكيد له مع الكائدين وتمكر به مع الماكرين . وهو يلح على فى أن يفارق باريس وينتظر الرد على كتبه فى مدينة أخرى أقل خيانة وغدرا من هذه المدينة الخائنة الغادرة التى يسكنها الخونة الغادرون . والطبيب الذى يعود لا يرى بأسا بأن يفارق باريس ويقيم فى مكان معتدل الهواء كثير الشجر . وما هى إلا أن يستقر صاحبى فى أحد الفنادق غير بعيد من باريس فى طرف غابه من الغابات . ومن هذا الفندق تصدر رسائله التى لاتنقضى إلى أساتذة السربون وإلى رجال وزارة الخارجية وإلى أنا ، وإلى

من كتب تلك التي كانت تنتهي الى في الصباح والمساء من كل يوم ! حسبي أن أثبت منها هذا الكتاب القصير .
نوفمبر في . . .

لم يبق لي أمل ولا شيء يشبه الامل أيها الصديق ، فقد أجمع الحلفاء أمرهم وأمضوا عزيمتهم لا يقبلون في ذلك مراجعة ولا شفاعه ، بل هم قطعوا على الشفاعة كل طريق ، فأفسدوا على حتى أساتذة السربون الذين كانوا يحبونني ويؤثرونني أشد الايثار .
فهؤلاء الاساتذة يتلقون رسائل فلا يردون عليها ، وأكبر الظن أنهم قد عرفوا خطي فهم لا يقرأون كتبي اذا انتهت اليهم . والغريب أن أحدهم فلانا . كان قد امتلأ قلبه حبا لي وأعجابا بي حتى قبل ما عرضت عليه حين خطبت اليه ابنته . وهذه الخطبة هي التي غاظت الين فصرفتها عني ولست أدري من أبلغها أمر هذه الخطبة التي كانت سرا ، الا أن يكون هذا الصديق الماكر الذي تعرفه ، فقد شربت معه ذات ليلة وتبسطت في الحديث . فلما أصبحت انتهيت الى رسالة القطيعة من الين .

والين من غير شك هي التي أفسدت على قلوب الحلفاء وصورتنى لهم في صورة العدو الخطر المخيف ، وهي التي زينت لهم نفبي الى المغرب الاقصى . يا الغيرة النساء ! والكيده النساء ! والضعف الرجال ! وبالسداجة الرجال ! وان كانوا أساتذة في السوربون أو ساسة محنكين . لم يبق لي أمل في عفو الحلفاء . عفوهم عن ماذا ؟ وهل جنيت عليهم ذنبا أو اقترفت في ذاتهم اثما ؟ لقد كنت أدافع عنهم في كل فرصة . وأذود عن حقوقهم بالقلم واللسان ، ولكنهم قد أجمعوا أمرهم على نفبي ، وأنت وحدك القادر على حمايتي ووقايتي من هذا النفي . وماذا تريد أن أصنع في المغرب الاقصى ! أليست مصر أولى بي ، أو لست أنا أولى بمصر ! أن في مصر حميدة وان في فرنسا الين ، وجوار حميدة . على بغضها لي أهون على من جوار الين ، فان حميدة لم تؤلب على ، ولم تكدي ، وانما تلقت ايساءتي اليها بالصبر والعفو . أما الين فقد تلقت

احسانى اليها بالجحود والعفوق . فلا مقام لى فى هذا البلد ، و
سبيل الى الرحيل الا أن تعيننى عليه وأن تحكم تديره احكاما
فعيون الحلفاء يقظة لا تنام ، وجواسيسهم منبثة فى المخطط
والثغور . ولست أدري كيف تريد أن تدبر الامر . ولكنى معتنى
عليك فى اخراجى من هذه الارض ، وأنا مستعد للتذكر فيما شئت
الاشكال والازياء حتى أبلغ مصر . فاذا وضعت الحرب أوزارها وتب
للحلفاء أنهم قد ظلمونى حين أساءوا الظن بى وسبوا
وشاية الوشاة ، فمن يدري العلى أعود الى فرنسا فأتم درسى
فى السربون وأقتسرن الى هذه الفتاة التى أحبها جدا لا حد له
والتي قدرضينى أبوها لها زوجها ، والتي كدت أسعد بزواجها لولا
الين ، ولولا وشاية هذا الصديق الخائن . صدقنى ان من ضعف
الرأى وفساد العقل أن تطمئن الى هؤلاء الذين يسعون أنفسهم
أصدقاء .

٢٢

وتحمل الى صاحبة الباب ذات مساء حقيبة ضخمة ومعها هذا
الكتاب
سيدي :

أنت تعرفنى من غير شك ، فكثيرا ماحدثك عنى صديقك . .
وكثيرا ماحدثنى عنك ، وقد صورك لى دائما على أنك أحب
أصدقائه اليه ، وأوفاهم له ، وأحفظهم لسره . فأنا أحمل اليك
هذه الحقيبة بعد أن احتفظت بها عاما كاملا ، لا لانى كنت أنتظر
أن يعود صاحبها الى ، فقد أياسنى الاطباء من شفائه ، بل لانى كنت
أجد الجهد كل الجهد فى فراقها ، وفى فراق مايتصل به من الكتب
والمتاع . ولكن هذه الاعوام التى نحيها قد علمتنا الاذعان للقضاء
والخضوع لما ليس منه بد . فاليك هذه الحقيبة ياسيدى ، فان
لصاحبها من أبناء وطنه أهلا وأصدقاء هم أحق منى بما فيها
وأجدد أن يفهموه ويقدروه

وفى بيتى غرفة مغلقة منذ عام فيها كتب كثيرة جدا ومتاع ليس
بذى بال ، فهذه الغرفة طوع نكر حتى شئت أقبلت فأخذت
ما فيها ووجهته حيث أحببت
وذلك ياسيدى تحية ملؤها الحزن الذى ما أظن أنه سينقضى
أو تهدياً لوعته قبل زمن طويل *

وقد حفظت هذه الحقيبة بضعة عشر عاماً لا أعرف من أمرها الا
أنها مملوءة بالاوراق . فلما اتاح الظالمون لى شيئاً من فراغ، نظرت
فى هذه الاوراق فاذا أدب رائع حزين صريح ، لا عهد للغتنا بمثله
فيما يكتب أدباؤها المحدثون . وقد هممت بنشره وقدمت بين
يديه هذا الكتاب . ولكن هل تسمح ظروف الحياة الادبية
المصرية باذاعة هذه الآثار يوماً ما ؟ !